دِراسَاتٌ قُرآنِيَّةٌ (4)

سُورَةُ البَقَرَةِ (2)

(123 - 61)

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الكتاب: **دراسات قرآنية** (4)
سورة البقرة (61 - 123)
تأليف: **الشيخ مصطفى قصير** قدس سره
مراجعة وتنسيق: **مركز المعارف للمناهج والمتون التعليميّة**
إصدار: **دار المعارف الإسلامية الثقافية**
الطبعة: الأولى - 2019م/1440هـ
تصميم وطباعة: DBOUK 00961 3 336218

ISBN 978-614-467-???-?

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

موسوعة العلامة الشيخ مصطفى قصير العاملي

دراسات قرآنية (4)

سورة البقرة (2)

(61 - 123)

الجزء الثامن

المعارف
دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

الآية (61) 9
الآية (62) 13
من هم الصابئون؟ 14
الآية (63) 16
الآية (64) 19
الآية (65) 20
ما المقصود بالمسخ؟ 22
الآية (66) 23
الآية (67) 24
الآية (68) 25
الآية (69) 26
الآية (70) 26
الآية (71) 27
الآية (72) 27
الآية (73) 28
الآية (74) 28
الآية (75) 30
الآية (76) 33
الآية (77) 34
الآية (78) 35
الآية (79) 36

الآية (80) 37
الآية (81) 38
الآية (82) 39
الآية (83) 40
الآية (84) 43
الآية (85) 46
الآية (86) 50
الآية (87) 51
الآية (88) 56
الآية (89) 58
الآية (90) 61
الآية (91) 65
الآية (92) 69
الآية (93) 69
الآية (94) 71
الآية (95) 74
الآية (96) 75
الآية (97) 75
الآية (98) 77
الآية (99) 77
الآية (100) 78
الآية (101) 78
الآية (102) 79
الآية (103) 82
الآية (104) 83
الآية (105) 85
الآية (106) 85

الآية (107) 89
الآية (108) 91
الآية (109) 92
هل نسخت هذه الآية بآيات الجهاد؟ 95
الآية (110) 96
لكن كيف تتجسّد الأعمال؟! 99
الآية (111) 101
الآية (112) 103
الآية (113) 104
الآية (114) 107
الآية (115) 110
لكن لماذا القبلة؟! 113
ما المراد بوجه الله -تعالى-؟ 113
الآية (116) 115
الآية (117) 119
الآية (١١٨) ١٢١
الآية (١١٩) ١٢٧
الآية (١٢٠) ١٣٠
الآية (١٢١) ١٣٢
الآية (١٢٢) ١٣٥
الآية (١٢٣) ١٣٥
قائمة المصادر والمراجع 137

الآية (61)

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾:

تنقسم الآية إلى ثلاثة مقاطع:

الأوّل: حال بني إسرائيل، ومطالبتهم بالمزيد من النعم.

الثاني: الاستجابة والإجابة.

الثالث: الحكم عليهم بالغضب.

ففي المقطع الأوّل: تبرُّم بني إسرائيل وعدم قناعتهم، على الرغم من أنّ الله -تعالى- أنزل عليهم المنّ والسلوى؛ ليتغذّوا منه، وفجّر لهم الينابيع، لكنّهم لم يصبروا على ذلك، وطالبوا بالمزيد من الرزق.

فالطعام الواحد هو المنّ والسلوى ظاهراً، المذكور في آية

سابقة. وقد يُطلق الطعام ويُراد به الحنطة، وإنْ كان في أصل اللغة هو جميع ما يُتغذّى به.

والبقل: ما ينبته الربيع، وهو كلّ نبات ليس له ساق، فيشمل جميع الخضار.

والقثّاء: نوع من الفاكهة يشبه الخيار، وتسمّيه عوامّنا بالمقتى.

والفوم: قيل: هو الحنطة، وقيل: هو الخبز، وقيل: هو سائر الحبوب التي تخبز، وقيل: هو الثوم في لغة أخرى.

والعدس معروف، وكذلك البصل.

فهم طلبوا فتح باب الزراعة بأصنافها كلّها.

وفي المقطع الثاني: أنكر الله عليهم ذلك، معتبراً أنّ ما يريدونه هو استبدال الأدنى والأخسّ بالأفضل. فماذا فعل بنو إسرائيل حينما طلبوا المزيد من الرزق والتنوّع فيه ليكون محلًّا لهذا الإنكار؟ وأين هو الاستبدال؟ وما هو الأدنى؟ وما هو الخير؟!

يبدو أنّ هذا الطلب جاء في سياق الحرص على الدنيا وإرادتها، ولو على حساب دينهم، ويستفاد ذلك من التعبير بنفي الصبر: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، وكانوا يريدون ما يريدون وهم يعلمون أنّه لا يتأتّى إلّا بالانتقال من الصحراء التي كانوا فيها، والتي لا تنبت أرضها ما يريدون. ودخول الأرض المقدّسة يحتاج إلى صبر وتضحية، ولم يكونوا على استعداد له، وإلّا فليس مجرّد طلب الرزق أوجب هذا النكير. ويساعد عليه ما يأتي من ضرب الذلّة والمسكنة عليهم.

ولعلّ الإنكار من جهة أنّ طلب الدنيا يرتّب عليهم من التكاليف والامتحانات ما يجعلهم في معرض السقوط، فإنّ الفقير مرفوع عنه التكاليف الماليّة، بخلاف الغنيّ، فإذا أعطي الرزق وبخل بالحقوق، صار مفتوناً، وتحوّلت النعمة إلى نقمة.

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾:

ذُكِر في المراد من مصر وجوه، هي:

1. أيّ مدينة تتوافر فيها الزراعة، ويدلّ عليه التنوين، وأنّهم لم يرجعوا -على ما ذكر في التاريخ- إلى مصر بعد أن خرجوا منها، وأنّهم أُمروا بعد ذلك أو قبله بدخول الأرض المقدّسة.
2. مصر المعروفة، وأمّا دخول التنوين عليها فنظراً إلى أنّه ثلاثيّ أُسكِن وسطه، مثل: نوح، ولوط.

وفي المقطع الثالث: بيان لما أصابهم من العقاب، حيث ضُربت عليهم الذلّة، فلازمتهم وألصقت بهم.

والذلّة: الهوان والمذلّة.

والمسكنة: الحاجة والفقر.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ﴾:

رجعوا به؛ أي رجعوا إليه يوم القيامة بما يوجب غضبه.

والسبب في ذلك أمور أربعة على الترتيب الآتي:

1. الكفر بآيات الله.
2. قتل الأنبياء بغير حقّ.
3. العصيان.
4. الاعتداء وتجاوز الحقوق.

ولا بدّ من وجود علاقة بين هذه الأمور الأربعة وبين طلبهم السابق، ولعلّ علاقتهم بالدنيا، وحرصهم عليها، وعدم صبرهم على البلاء، وعدم تحمّلهم للتكاليف، وكثرة تعنّتهم؛ أوصلتهم إلى الكفر والعصيان والقتل والاعتداء.

وفيما يرتبط بقتل الأنبياء عليهم السلام بغير حقّ، فإنّ القيد (بغير حقّ) ليس احترازيّاً؛ لعدم تصوّر قتلهم بحقّ بوجه من الوجوه، فهو تأكيد على أنّ ذلك القتل كان بغير حقّ لا أكثر. وفي النصّ الوارد عن أهل البيت عليهم السلام أنّ قتلهم الأنبياء عليهم السلام لم يكن بالمباشرة، وإنّما بالتسبيب، وهو باب واسع ينفتح على كثير من الآثار السلبيّة التي تترتّب على أخطاء المؤمنين، أو قلّة تدبيرهم، أو سذاجتهم، أو إفشاء أسرارهم؛ بما تؤدّي إلى أخذهم من قبل الظالمين، أو إفشال مشروعهم.

وقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وددت، والله، أنّي افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي: النزق، وقلّة الكتمان**»[1].

كما تقتضي الآية الشريفة ملازمة الذلّة والمسكنة لبني إسرائيل ما داموا على هذه الصفات المذكورة؛ وعليه، فإنّ صهاينة زماننا الذين بلغوا الغاية في هذه الصفات، وظهر منهم عمليّاً ما يثبت تماديهم وعدوانيّتهم بلا حدود، لن يكونوا خارجين عن القاعدة، خاصّةً أمام أهل الإيمان والتقوى.

(1) الكلينيّ، الشيخ محمّد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح: عليّ أكبر الغفاريّ، دار الكتب الإسلاميّة، إيران - طهران، 1363ش، ط5، ج2، ص221-222.

الآية (62)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

تبيّن هذه الآية معيار صلاح الإنسان، وفوزه عند الله -تعالى-، من خلال اقتران إيمانه بالاعتقاد والعمل الصالح، فلا يكفي مسمّى الدخول في ملّة من الملل، حتى لو كانت ملّة حقّ، ما لم يقترن ذلك بأمور اعتقاديّة معيّنة، مضافاً إلى العمل الصالح.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الآية لا تبرّر البقاء على الديانات السابقة، بحجّة إقرارها لنجاتهم وإثبات الأجر لهم؛ لأنّ التمسّك بالكتب السابقة، واتّباع الأنبياء السابقين عليهم السلام يقودان حتماً إلى الإيمان بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فما من كتابٍ، ولا من نبيٍّ، إلّا وبَشّر بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم ودين الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2].

وقد ذكرت الآية أربع فئات من أتباع الديانات السماويّة، هم:

1. الذين آمنوا؛ أي تعنونوا بهذا العنوان، ولو على المستوى الظاهريّ. ويُطلق القرآن هذا العنوان على كلّ من صدّق بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ظاهراً، سواء أحَسُنَ إيمانه أم لم يحسنُ؛ ولذلك عقّب بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ ليشير

(1) سورة آل عمران، الآية 19.
(2) السورة نفسها، الآية 85.

إلى أنّ الأجر المذكور في الآية، وكذلك المنن والعطايا الربّانيّة الأخرى، خاصّة بالفئات المذكورة في الآية.

2. الذين هادوا: هم اليهود. وقيل في سبب تسميتهم بذلك أنّ أصلهم يهودا بن يعقوب، وقيل: من قولهم ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]، يعني تبنا إليك، وقيل: لأنّهم تحرَّوا طريق اليهود في الدين.
3. النصارى: هم المسيحيّون، إمّا لأنّ عيسى ومريم عليهما السلام أقاموا في الناصرة، وأتباعه نسبوا إلى تلك البلدة، وإمّا لقولهم نحن أنصار الله وأحبّاؤه.
4. الصابئون: هم قوم يكادون ينقرضون. وقد اختُلف في تشخيصهم، وفي بيان أصلهم وعقائدهم وكتابهم اختلافاً كبيراً، لكنْ الذي يظهر من عطفهم على اليهود والنصارى في مواضع ثلاثة، يُوحي بأنّهم أهل كتاب.

وأصل الكلمة من صبا؛ يعني مال. وكلّ خارج من دين إلى دين آخر فهو صابيّ، وقيل: من صبا؛ أي انحرف عن طريق الأنبياء، وقيل: هي كلمة مشتقّة من كلمة عبريّة تعني الغوص في الماء أو التعميد، وقيل: هم وثنيّون أو روحانيّون يتستّرون باسم الصابئة المندائيّين.

من هم الصابئون؟

وردت في المراد من الصابئة أقوال، هي:

1. إنّهم قوم كانوا على دين نوح.

(1) سورة الأعراف، الآية 156.

2. إنّهم أهل حرّان؛ وهي أوّل مدينة بنيت بعد الطوفان. وهذا ينسجم مع القول الأوّل.
3. إنّهم فرقة كانت تعبد الملائكة، ويقرأون الزبور.
4. إنّهم حنفاء، وهو دين جاء به بوذاسب على عهد طهمورس.
5. إنّهم أتباع يحيى بن زكريا الذي يسمّيه المسيحيّون يوحنّا المعمدان. وهذا ينسجم مع قول من اعتبر الكلمة مشتقّة من التعميد بالعبريّة أو الآراميّة. وهم المندائيّون.
6. إنّهم كانوا قوم إبراهيم الخليل، وهم أهل دعوة، وكانوا بحرّان، وهي دار الصابئة، وكانوا قسمين: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون، والمشركون منهم يعظّمون الكواكب والأبراج.

والذي يهوّن الخطب ندرة وجودهم في الواقع المعاصر، إلى حدّ اندراسهم.

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾:

الموصول: بدل بعض من كلٍّ ممّا تقدّم من الفرق الأربعة، والصلة ثلاثة أمور:

1. الإيمان بالله، ويتناول ما يتفرّع عليه من تفاصيل الصفات ولوازم التوحيد كلّه.
2. الإيمان باليوم الآخر.
3. العمل الصالح، حسبما جاءت به الشرائع.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

ما يستحقّونه من الأجر؛ ولذلك أضافه إليهم.

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾:

المنفيّ هو خوف يوم القيامة؛ أي الخوف على المصير، والحزن حزن يوم القيامة. وقد تكرّر ذلك في القرآن.

الآية (63)

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

عودة إلى خطاب بني إسرائيل؛ مذكِّراً إيّاهم بالنعم وبالعهود.

والمراد بالميثاق: العهد أو اليمين، والموثق ما يؤكّد العقد أو الوعد.

لكن كيف أخذ الله ميثاق بني إسرائيل، وما هو الميثاق المأخوذ، وعلى أيّ شيء أخذ الميثاق؟

ذكر القرآن الكريم هذا الميثاق في مواضع عدّة، هي:

1. ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾[1].
2. ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[2].
3. ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾[3].
4. ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ﴾[4].

(1) سورة المائدة، الآية 7.
(2) سورة البقرة، الآية 83.
(3) سورة المائدة، الآية 12.
(4) السورة نفسها، الآية 70.

5. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[1].
6. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[2].

وذَكَر -أيضاً- مواثيق أخرى، هي:

1. ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾[3].
2. ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾[4].
3. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾[5].
4. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾[6].
5. ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾[7].

وذُكِرَ في المراد من أخذ الميثاق وجوه كثيرة، ولكنّها في أغلبها لا تعتمد على أصل. والظاهر أنّ المراد بأخذ الميثاق في الآية هو الإقرار بالوحدانيّة والنبوّة، والتزام الرسالة، كما في أخذ الميثاق من بني آدم في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[8].

(1) سورة الأعراف، الآية 169.
(2) سورة النساء، الآية 154.
(3) سورة آل عمران، الآية 81.
(4) السورة نفسها، الآية 187.
(5) سورة النساء، الآية 90.
(6) السورة نفسها، الآية 92.
(7) سورة الرعد، الآية 20.
(8) سورة الأعراف، الآية 172.

والإقرار بالربوبيّة جاء عن طريق الإشهاد التكوينيّ أو الفطريّ، أو الإشهاد بعد بعثة الأنبياء عليهم السلام وإقامة الحجج والبيّنات، قال -تعالى-: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[1].

ونُسب الميثاق إليهم باعتبار صدوره عنهم، وقد يُنسب في مواقع أخرى إليه -تعالى-؛ باعتبار أخذه من قِبَله -تعالى- وإشهاده هو، وإضافته إلى الكتاب في هذه الآية باعتبارٍ آخر، وهو تضمّن الكتاب للحجج والبيّنات.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾:

تحدّث القرآن الكريم عن رفع الطور في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لمّا أنزل الله التوراة على بني إسرائيل لم يقبلوه، فرفع الله عليهم جبل طور سيناء، فقال لهم موسى عليه السلام: إنْ لم تقبلوا وقع عليكم الجبل؛ فقبلوا، وطأطأوا رؤوسهم**»[3].

(1) سورة الأعراف، الآية 169.
(2) السورة نفسها، الآية 171.
(3) عليّ بن إبراهيم القمّيّ، تفسير القمّيّ، تصحيح وتعليق وتقديم: السيّد طيّب الموسويّ الجزائريّ، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، 1404هـ، ط3، ج1، ص246.

ومن الواضح أنّ رفع الطور كان فيه دلالتان:

الأولى: إعجازيّة لإقامة الحجّة والبيّنة على القدرة الإلهيّة.

الثانية: تحذيريّة في مواجهة عنادهم ومكابرتهم.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

أمر بأخذ الكتاب المنزل؛ أي العمل بما فيه وتصديقه، فأخذه يعني جعله منهاجاً وطريقاً وسراجاً وهادياً وقائداً. ويشير بوصف الأخذ بأنّه بقوّة؛ أي أخذاً كاملاً، والتزاماً محكماً، لا خلل فيه، ولا تهاون، ولا استخفاف.

﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾:

بحفظه ونشره.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

نتيجة الأخذ وغايته.

الآية (64)

﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

التولّي: الابتعاد والإعراض، والمراد به في الآية هو إعراض بني إسرائيل عن الكتاب، في مقابل الأخذ بقوّة، على الرغم من الدلائل والبيّنات والحجج والبراهين والمواثيق كلّها!

الآية (65)

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾:

تناولت هذه الآية قضية الاعتداء في السبت التي ورد الحديث عنها بشيء من التفصيل في سورة الأعراف: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[1]، حيث كان الله -تعالى- قد نهاهم عن الصيد يوم السبت: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[2]؛ وأصل السبت الراحة، ومنه صار السبات الذي هو النوم؛ لأنّه إخلاد إلى الراحة. وربّما كان من جهة الانقطاع عن الحركة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾[3]، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[4].

ولعلّ تسمية يوم السبت اشتقّت من هذا، فهو يوم الراحة والسكون والانقطاع عن العمل عند اليهود.

وقيل: سمّي السبت؛ لأنّه -تعالى- بدأ الخلق يوم الأحد وأكمله الجمعة، فكان السبت يوم الانقطاع، وهو -كما ترى- أشبه بالإسرائيليّات.

لماذا نهى الله -تعالى- بني إسرائيل عن الصيد يوم السبت؟

(1) سورة الأعراف، الآية 163.
(2) سورة النساء، الآية 154.
(3) سورة الفرقان، الآية 47.
(4) سورة النبأ، الآية 9.

ففي الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾[1].
والاختلاف في السبت يحتمل وجوهاً، هي:

1. الاختلاف بين اليهود والنصارى، حيث قال اليهود السبت أعظم الأيّام؛ لأنّه -تعالى- فرغ فيه من الخلق، وقال النصارى الأحد أعظم الأيّام؛ لأنّه -تعالى- بدأ فيه الخلق. وينافي هذا الوجه أنّه لم يجعل على النصارى.
2. إنّ الذين اختلفوا فيه هم اليهود خاصّة، حيث حرّموه، ثمّ استحلّوه؛ فاستحقّوا المسخ.
3. إنّ اليهود أُمِروا بتعظيم الجمعة، وجعله يوم عبادة، فعدلوا عنه إلى السبت. وهذا فيه روايات، منها:

روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**إنّ أصحاب السبت قد كان أملى الله لهم حتّى أثرَوا وقالوا: إنّ السبت لنا حلال، وإنّما كان حرّم على أوّلينا، وكانوا يعاقبون على استحلالهم السبت، فأمّا نحن فليس علينا حرام، وما زلنا بخير منذ استحللنا، وقد كثرت أموالنا وصحّت أبداننا، ثمّ أخذهم الله ليلاً وهم غافلون**»[2].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ اليهود أُمِروا بالإمساك يوم الجمعة، فتركوا يوم الجمعة وأمسكوا يوم السبت، فحرّم عليهم الصيد يوم السبت**»[3].

والروايات كثيرة ومفصّلة في هذا الموضوع[4].

(1) سورة النحل، الآية 124.
(2) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص181.
(3) العيّاشيّ، محمّد بن مسعود، تفسير العيّاشيّ، تحقيق: الحاج السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، إيران - طهران، 1422هـ، ط1، ج2، ص34.
(4) انظر: المجلسيّ، العلاّمة محمّد باقر بن محمّد تقيّ، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسّسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2، ج14، ص50 - 64.

ويستفاد ممّا تقدَّم أنّ النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر اليهود باتّخاذ يوم يتفرّغون فيه للعبادة، فاتّخذوا يوم السبت، ولم يرضوا بالجمعة، ثمّ إنّهم لشدّة حبّهم للدنيا وحرصهم على زخارفها، ابتلاهم الله بأنْ جعل الحيتان تخرج إلى الساحل آمنة مطمئنّة يوم عطلتهم وانقطاعهم عن العمل، ولا تخرج إليهم في غيره؛ ما أثار في نفوس قوم منهم الطمع، فأرادوا الاحتيال لاصطيادها، فكانوا يشقّون الخنادق المؤدّية إلى الحياض، وعندما تأتي الحيتان تدخل إلى الحياض، ولا يمكنها الخروج، فيأخذونها يوم الأحد، أو يضعون الشباك ليلة السبت ويأخذونها يوم الأحد، وربّما تجرّأ بعضهم، فاصطادوا علناً يوم السبت، زاعماً أنّه حرّم على السابقين منهم وليس عليهم. وكيف كان، فهو امتحان لهم ولم ينجحوا فيه، ولم ينفع معهم تحذير المطيعين منهم، فحكم عليهم المولى -عزّ وجلّ- بالمسخ.

ما المقصود بالمسخ؟

المسخ: هو تحويل الخِلْقة، فقد حوّل الله -تعالى- خِلْقتهم من بشر إلى قردة، ومسخهم في موضع آخر إلى خنازير، قال -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1].

ويُطلق اسم المسوخ على القردة والخنازير.

(1) سورة المائدة، الآية 60.

وفي الروايات أنّ الممسوخ لا يتوالد ولا يعقب، وأنّهم عاشوا ثلاثة أيّام فقط بعد المسخ، وقيل: سبعة أيّام[1].

وقيل: إنّ المسخ حصل مرّة واحدة؛ مسخ الشبّان قردة، والشيوخ خنازير.

وقيل: إنّ المسخ إلى خنازير كان في زمن داود عليه السلام وعلى لسانه، والقردة على لسان عيسى عليه السلام مسخ أصحاب المائدة إلى خنازير.

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾:

أذلّاء مبعدين عن كلّ خير.

الآية (66)

﴿فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾:

إخبار من الله -تعالى- بعاقبة هذه القضيّة؛ أي ما حلّ بهم من المسخ، أو القرية التي اعتدى أهلها، وهي وإنْ لم تتقدّم صراحة، ولكنّها ذُكِرَت في آيات أخرى، كما تقدّم.

﴿نَكَٰلٗا﴾:

عقوبة ورادعاً.

﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا﴾:

من الأمم أو القرى، أو من يأتي بعدهم.

(1) انظر: الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، علل الشرائع، تقديم: محمّد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف، 1385هـ.ق/ 1966م، لا.ط، ج1، ص272.

﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾:

موعظة لمن أراد أن يتّعظ، وهم المتّقون.

الآية (67)

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾:

قصّة البقرة من القصص التي تبيّن مدى عناد بني إسرائيل ومكابرتهم، وصعوبة انقيادهم لرسولهم، فقد روي أنّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً (ابن عمّ) له، ثمّ أخذه فطرحه على طريق أفضلِ سبطٍ من أسباط بني إسرائيل، ثمّ جاء يطلب بدمه. وقيل: في سبب قتله لابن عمّه أنّه حسده على امرأة كانا خطباها، فأنعمت للمقتول دون القاتل. وقيل: كان المقتول رجلاً غنيّاً لا عقب له، وكان القاتل يرثه، فاستبطأ موته، فقتله. فقالوا لموسى عليه السلام: إنّ سبط آل فلان قتلوا فلاناً، فأخبرنا من قتله. قال موسى عليه السلام: إيتوني ببقرة، فقالوا أتتّخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، ولو أنّهم عمدوا إلى أيّ بقرة لأجزأتهم، ولكنْ شدّدوا، فشدّد الله عليهم، ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌۖ﴾؛ يعني لا صغيرة ولا كبيرة عَوانٌ بين ذلك، ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة لأجزأتهم، ولكنْ شدّدوا، فشدّد الله عليهم، ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة لأجزأتهم، ولكنْ شدّدوا، فشدّد الله عليهم: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ

عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، فطلبوها، فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل، فقال لا أبيعها إلّا بملء مسكها ذهباً، فجاؤوا إلى موسى عليه السلام، فقالوا له ذلك، فقال: اشتروها، فاشتروها، وجاؤوا بها، فأمر بذبحها، ثمّ أمر أن يُضرَب الميت بذنبها، فلمّا فعلوا ذلك حييَ المقتول، وقال: يا رسول الله! إنّ ابن عمّي قتلني دون من يُدَّعى عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله. فقال بعض أصحاب النبيّ موسى عليه السلام: إنّ هذه البقرة لها نبأ، فقال وما هو؟ فقال: إنّ فتىً من بني إسرائيل كان بارّاً بأبيه، وإنّه اشترى بيعاً، فجاء إلى أبيه والأقاليد تحت رأسه، فكَرِه أن يوقظه، فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه، فأخبره، فقال له: أحسنت خذ هذه البقرة، فهي لك عوضاً لما فاتك. فقال له رسول الله موسى عليه السلام: «**انظروا إلى البرّ ما يبلغ بأهله**»[1].

﴿ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾:

أهل السفاهة.

الآية (68)

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾:

(1) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص49 - 50.

﴿فَارِضٌ﴾:

المسنّة.

﴿بِكْرٌ﴾:

الفتيّة التي لم تلد.

وفي هذه الآية بيان للتشديد الأوّل من بني إسرائيل على أنفسهم بشأن البقرة.

الآية (69)

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾:

﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾:

شديد الصفرة.

وفي هذه الآية بيان للتشديد الثاني من بني إسرائيل على أنفسهم بشأن البقرة.

الآية (70)

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾:

وفي هذه الآية بيان للتشديد الثالث من بني إسرائيل على أنفسهم بشأن البقرة.

الآية (71)

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾:

﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾:

أي ليست من النوع المذلّل لحرث الأرض وسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾:

مسلَّمة من العيوب؛ أي لا عيب فيها.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾:

لا نقط فيها إلّا الصفرة.

وقد تقدّم الكلام في البقرة التي جاء بها بنو إسرائيل في الرواية السابقة.

الآية (72)

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

نسب القتل إليهم، مع أنّ القاتل واحد، وهو من باب المجاز، أو لكونهم شركاء في الفعل عن طريق الرضى، أو النسب، أو إزالة الموانع، والله أعلم.

وقد أخّر ذِكْر القتل، مع أنّه هو الأصل في قصّة البقرة؛ لعلّه تمهيداً للنتيجة المعلنة في الآية اللاحقة.

الآية (73)

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

تقدّم الكلام في قصّة الإحياء وكيفيّته في الرواية السابقة.

الآية (74)

﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

في هذه الآية متابعة لتوجيه الخطاب إلى بني إسرائيل، فبعد الآيات والبيّنات والدلائل والمعجزات كلّها، وبعد ما صدر عنهم كلّه من عناد وعصيان وانحراف ومكابرة؛ صاروا قساة القلوب، حيث شبّه الله -تعالى- قساوة قلوبهم بالحجارة، ثمّ ترقّى في خطابهم إلى أنّها أقسى منها. وليس المراد بقساوة القلب صلابة مادّته، وأنّ القلوب تخفق وتتحرّك، بل المراد بالقسوة أمر معنويّ يكنّى به عن انعدام الرقّة التي تنشأ عادة من الخوف من الله -تعالى-، ومن استشعار الخشوع أو الحبّ أو العطف. ووجه كونها أشدّ من الحجارة قساوةً، أنّ الحجارة يمكن أن يخرج منها الماء على الرغم من صلابتها، ويمكن أن يفجّرها خروج الماء، بينما قلوبهم جمدت، فلم يعد فيها محلّ للخير، ولا للخشوع.

وقد ورد في نصوص كثيرة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام أنّ المعاصي توجب قساوة القلب والتعلّق بالدنيا، فعن رسول الله

ﷺ أنّه قال: «**لا تكثروا الكلام بغير ذِكْر الله، فإنّ كثرة الكلام بغير ذِكْر الله يقسّي القلب، وإنّ أبعد الناس من الله القاسي القلب**»[1].

وعنه ﷺ -أيضاً- فيما أوصى به الإمام عليّاً عليه السلام: «**يا عليّ، ثلاث يقسّين القلب: استماع اللهو، وطلب الصيد، وإتيان باب السلطان**»[2].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ولا يطولنّ عليكم الأمل، فتقسوا قلوبكم**»[3].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**ما جفّت الدموع، إلّا لقسوة القلوب، وما قست القلوب، إلّا لكثرة الذنوب**»[4].

وفي ما ناجى به الله -تعالى- موسى عليه السلام: «**يا موسى، لا تطوّل في الدنيا أملك؛ فيقسو قلبك. والقاسي القلب منّي بعيد**»[5].

---

(1) الطوسيّ، الشيخ محمّد بن الحسن، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة في مؤسّسة البعثة، دار الثقافة، قمّ المقدّسة، 1414هـ.ق، ط1، ص3.

(2) الطبرسيّ، الشيخ الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضيّ، قمّ المقدّسة، 1392هـ.ق/ 1972م، لا.ط، ص440.

(3) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، الخصال، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، 1403هـ - 1362ش، لا.ط، ص622.

(4) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، مصدر سابق، ج1، ص81.

(5) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص329.

﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾:

ذُكِرَ هبوط الحجارة من خشية الله في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كما في قوله -تعالى-: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾[1]، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾[2]، ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾[3]. **وهو يجري مجرى تسبيح الكائنات غير الحيّة، قال -تعالى-:** ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾[4]، ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾[5].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

وإنْ تكتّمتم عليه، وأخفيتم حقيقته، وأسررتم مقاصده.

الآية (75)

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾:

توجيه الخطاب إلى المؤمنين، وفيه التفات من خطاب بني إسرائيل إلى خطاب المؤمنين؛ تسليةً لهم لكي لا يشعروا بالإحباط بسبب عدم استجابة يهود المدينة لهم، وعدم دخولهم

(1) سورة الحشر، الآية 21.
(2) سورة الأعراف، الآية 143.
(3) سورة الرعد، الآية 31.
(4) سورة الحج، الآية 18.
(5) سورة الرحمن، الآية 6.

في الإيمان، مع بيان الوجه الذي يجعلهم محجوبين عن الإيمان، منشدّين إلى الكفر، وهو جرأتهم على الله، وتحريفهم لكلامه متعمّدين في ذلك لأجل أهواءٍ أَسَرَتهم، ومكابرة تملّكتهم، فثمّة تنافٍ بين هذه الأمور وهذا الواقع، وبين الإيمان بالدين الجديد والرسالة الإسلاميّة.

﴿يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾:

المقصود الإيمان بالله، استجابة لهم، ونتيجة لدعوتهم.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾:

التحريف هو التغيير والتبديل بما يخرج الكلام عن معناه الذي قصده المتكلّم. وقد ذَكَر القرآن قضيّة التحريف في ثلاثة مواضع أخرى، هي:

1 - ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾[1].

2 - ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾[2].

3 - ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾[3].

(1) سورة النساء، الآية 46.
(2) سورة المائدة، الآية 13.
(3) السورة نفسها، الآية 41.

والظاهر أنّ هذه الآيات الأربعة تتحدّث عن أمر واحد، وهو التحريف، وإنْ كانت الآية الأولى التي نحن بصددها أعمّ؛ لأنّها لم تخصّصه بالتحريف المعنويّ، بخلاف الآيتين الأخيرتين.

وقد اشتهرت صفة التحريف في بعض اليهود، حتّى باتت من خصائصهم. وهم حاولوا أن يفعلوا ذلك في الإسلام من خلال الدسّ والتشويه واستغلال البسطاء وأهل الأهواء.

ويقسم التحريف إلى قسمين، هما:

1. التحريف اللفظيّ؛ وذلك بتغيير الكلمات وتبديلها، أو زيادة شيء فيها، أو إنقاص شيء منها.
2. التحريف المعنويّ؛ وذلك بحمله على غير معناه، وتأويله على غير ما وُضِعَ له.

والآيتان الأخيرتان ظاهرتان في هذا النوع من التحريف؛ لأنّهما جعلتا التحريف للكلم عن مواضعه، وفي الآية الثالثة من بعد مواضعه. والمراد بالمواضع الأمور التي وُضِعَ الكلم لها هي المعاني الأساسيّة أو المقصودة. وفي هذا التحريف أكثر من جرم:

1. إنّه جرأة على الله من خلال التصرّف في كلامه.
2. إنّه كذب على الله -تعالى-، وهو أقبح الكذب، وكذب على الناس -أيضاً- في آن معاً.
3. إنّه إضلال للناس، وتشويش لأذهانهم، وإيقاعهم في الخطأ والانحراف.
4. إنّه تزوير وتلبيس.
5. إنّه كفر وعناد.

الآية (76)

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

هؤلاء قوم مردوا على العناد والكفر، وعندما جاء الإسلام وظهر الرسول ﷺ الذي طالما أخبروا عرب المدينة بظهوره المرتجى لم يؤمنوا به، ممّا كان يضعهم في موقف حرج لمناقضة واقعهم مع أقوالهم السابقة وإخباراتهم، وربما دفعهم ذلك إلى النفاق وإظهار الإيمان ومخادعة المؤمنين والتآمر في السرّ.

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

استفهام استنكاريّ؛ أي أتحدّثون الذين آمنوا بالذي فتح الله عليكم، قال ابن عبّاس: أي بما ألزمكم الله به، وقيل: بما أنزله في كتابكم من بعث محمّد ﷺ، وقيل: ما وصفهم الله -تعالى- به من مسخهم قردة وخنازير، وقيل: هم قوم من اليهود آمنوا فحدّثوا المؤمنين بما جرى عليهم وما عذبهم الله -تعالى- به، فأنكر عليهم الآخرون ذلك.

وأصل الفتح في اللغة: القضاء، والنصرة، والحكم[1]، قال -تعالى-: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾[2].

(1) انظر: الخليل الفراهيديّ، أبو عبد الرحمن بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهديّ المخزوميّ والدكتور إبراهيم السامرائيّ، مؤسّسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ، ط2، ج3، ص194 (مادّة «فَتَحَ»).

(2) سورة الأعراف، الآية 89.

وروي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «**كان قوم من اليهود ليسوا بالمعاندين المتواطئين إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما في التوراة من صفة محمّد** صلى الله عليه وآله وسلم **، فنهاهم كبراؤهم عن ذلك وقالوا لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمّد** صلى الله عليه وآله وسلم **فيحاجّوكم به عند ربّكم**»[1].

وقيل: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ معناه بما منّ الله عليكم وأعطاكم.

الآية (77)

﴿أَوَ لَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾:

استفهام إنكاريّ على مقولتهم السابقة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾، وفيه إشارة إلى أنّ علمه -تعالى- بهم هو علم إحاطة بالأشياء: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤﴾[2]. وليس علمه -تعالى- من قبيل العلم الحسيّ المادّيّ المتحصّل من خلال ما تقع عليه الحواسّ المادّيّة!

(1) الطوسيّ، الشيخ محمّد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العامليّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، طهران، 1409هـ.ق، ط1، ج1، ص316.
(2) سورة الحديد، الآيتان 3-4.

وفي الآية إشارة إلى العقليّة المادّيّة التي كانت تحكم عقيدة بني إسرائيل، حتّى في نظرتهم إلى الله -تعالى-!

الآية (78)

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾:

﴿أُمِّيُّونَ﴾:

هم الذين لا يجيدون القراءة والكتابة، وقيل سمّوا بذلك؛ لأنّ عطوفة الأمّ وشفقتها كانت تمنعها من إرسال ولدها للتعلّم، فيكتفي بتربيّة الأمّ؛ فنسب إليها، وقيل: لأنّه على جبلّته التي خلقه الله عليها، أو ولدته أمّه عليها.

والعرب كانوا أمّيّين، جاءتهم الكتابة من أهل الطائف الذين تعلّموها من رجل من أهل الحيرة، وكان أخذها أهل الحيرة من أهل الأنبار، قال -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ..﴾[1].

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

التوراة.

﴿أَمَانِيَّ﴾:

جمع أمنيّة، قيل: هي الأكاذيب[2]، وقيل: التمنّي التلاوة؛ وإنّما سمّيت التلاوة أمنيّة؛ لأنّ تالي القرآن إذا مرّ بآية رحمة تمنّاها، وإذا مرّ بآية عذاب تمنّى أن يوقّاها.

(1) سورة الجمعة، الآية 2.

(2) انظر: الطباطبائيّ، العلاّمة السيّد محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، 1417هـ، ط5، ج1، ص215.

والقول الأوّل هو الأقرب؛ لأنّ العرب كانت تقول: أنت إنّما تمتني هذا القول؛ أي تختلقه. والتمنّي يأتي بمعنى القراءة وبمعنى الكذب. وفلان يتمنّى الأحاديث؛ أي يفتعلها، وهو مقلوب من المين؛ أي الكذب. وتمنّى الحديث اخترعه[1].

ومعنى الآية: أنّ من هؤلاء المتقدِّم ذِكْرهم أمّيّين لا يقرأون ولا يكتبون، فلا يعلمون الكتاب إلّا ما يتلى عليهم تلاوة، أو مختلقات وأوهام عن غير علم، وإنّما هي مجرّد ظنون.

فهم -إذاً- فريق يحرّفون كلام الله، بعدما سمعوه وعقلوه، عامدين متعمّدين، وفريق جهلاء لا يعرفون الكتابة وليس لديهم إلّا ما سمعوه من أولئك المحرِّفين.

الآية (79)

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾:

الويل هو الدعاء بالهلكة، وقيل: اسم وادٍ في جهنّم.

وتندّد هذه الآية بالذين يكذبون على الله -تعالى-؛ بنسبة ما يكتبونه هم زوراً وبهتاناً إليه -تعالى-، وبزعمهم نزوله من عنده، وغرضهم من ذلك الحصول على بعض المكتسبات الدنيويّة التي لا قيمة لها أمام هذه الجرأة العظيمة والبهتان الكبير. وما يطلبه

(1) انظر: ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب حوزه، قمّ المقدّسة، 1405هـ.ق/ 1363هـ.ش، لا.ط، ج15، ص294-295 (مادّة «مَنِيَ»).

هؤلاء كلّه مهما عظم حجمه وعِلَت منزلته، فهو ثمن قليل أمام هذا العمل القبيح!

ولذلك كرّر مؤكّداً: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، فهم قد ارتكبوا جرمَين: جرم البهتان والتزوير والتحريف، وجرم الاكتساب والثمن الذي يريدونه.

الآية (80)

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

عودة للحديث عن وجه آخر من وجوه البهتان والكذب على الله -تعالى- صدر عن اليهود، حيث كانوا يُطمئنون أقوامهم من اليهود أنّهم لن يدخلوا النار، وإذا دخلوها، فلن يكون ذلك طويلاً، بل لا يتعدّى الأيّام المعدودة، ثمّ يخرجون منها. وهذا الكلام يستبطن زعماً آخر، وهو أنّهم أولي مكانة ومنزلة وحظوة خاصّة عند الله: ﴿ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾.

والأيّام القليلة بزعمهم هي أيّام عبادة العجل[1].

ولعلّ المراد أنّهم لمّا كانوا بزعمهم أصحاب الحظوة والمنزلة الخاصّة وأحبّاء الله -تعالى-، فهم مهما أذنبوا ومهما عصَوا لن يدخلوا النار إلّا أيّاماً معدودة، لرفع العتب، كما يُفعلُ بالمحسوبين على الزعامات النافذة عندما يرتكب أحدهم جرماً، فإنّه يدخل إلى السجن مؤقّتاً لإرضاء العامّة، ثمّ يخرج معزّزاً مكرّماً.

(1) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص51.

وهذا يمثّل اتّهاماً للباري -عزّ وجلّ- في عدله وحكمته: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾[1]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

الآية (81)

﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّـَٔةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

هذه الآية تأسيس لقاعدة ثابتة ومنطقيّة بعد الإضراب عن زعمهم.

﴿كَسَبَ سَيِّـَٔةٗ﴾:

اقترافها عن علم واختيار، وارتكاب المعصية وما ينتج عنها من آثار يجنيها الفاعل. وقد أساء الأشاعرة تفسير الآية، وخرجوا منها بنظريّة الكسب.

﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾:

صيرورة الإنسان المذنب في أسرها، ومقيّداً بها. وهذا يقع عند التمادي وصيرورتها مَلَكة وعادة، ويؤدّي ذلك به إلى الشرك، فيخلّد في النار مُهاناً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

هل يعني الخلود التأبيد أو البقاء الطويل؟

(1) سورة الكهف، الآية 49.
(2) سورة آل عمران، الآية 108.

المعنى اللغويّ يحتمل الاثنين، والاستثناء في الآيات الشريفة يناسب البقاء الطويل: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ...﴾[1]، ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾[2].

ولكنّ آيات أخرى تناسب التأبيد:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾[3].

ويمكن القول: إنّ التأبيد ليس داخلاً في المفهوم، وإنّما يستفاد من القيد.

الآية (82)

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

تبيّن هذه الآية أنّ مجرّد التلبّس بالاسم لا ينفع الإنسان ولا ينجيه؛ ردّاً على دعوى اليهود أنّهم لن تمسّهم النار، وتفيد أنّ سبيل النجاة يكمن في الإيمان والاعتقاد الحقّ المشفوع بالعمل الصالح، دون مجرّد الادّعاء!

(1) سورة هود، الآيتان 107-108.
(2) سورة الأنعام، الآية 128.
(3) سورة النساء، الآيات 57، 122، 169، وسورة المائدة، الآية 119، وسورة التوبة، الآيتان 22، 100؛ وسورة الأحزاب، الآية 65؛ وسورة التغابن، الآية 9؛ وسورة الطلاق، الآية 11؛ وسورة الجنّ، الآية 23؛ وسورة البيّنة، الآية 8.

الآية (83)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾:

تقدّم الحديث عن الميثاق في الآية الثالثة والستّين من هذه السورة، وهو هنا أوضح؛ لأنّه بيّن مواضيع الميثاق ومضامينه، وهي ثمانية أمور:

1. الامتناع من عبادة غير الله.
2. الإحسان إلى الوالدين.
3. الإحسان إلى ذي القربى.
4. الإحسان إلى اليتامى.
5. الإحسان إلى المساكين.
6. معاشرة الناس بالإحسان.
7. إقامة الصلاة.
8. إيتاء الزكاة.

فقوله -تعالى-: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي أنْ لا تعبدوا، فحذفت (أنْ)، ورفعت ﴿تَعْبُدُونَ﴾؛ تبعاً لذلك. والميثاق -هنا- بحصر العبادة بالله.

والعبادة عنوان عامّ يشمل كلّ طاعة، فنفي الطاعة عمّن سواه وإثباتها له -تعالى-؛ لأنّ له حقّ الطاعة. وطاعته تعود على الإنسان نفسه بالخير؛ إذ الله -تعالى- لا يطلب الطاعة لحاجته إليها، بل

لحاجة الإنسان نفسه إليها، فيكون الأمر بالطاعة من مصاديق اللطف الإلهيّ بالخلق.

ولا تنافي بين طاعة الله -تعالى- وطاعة من سواه ممّن أمر -تعالى- بطاعتهم من أولي الأمر؛ لأنّ طاعة هؤلاء في طول طاعة الله، وهي موصلة إلى طاعته -تعالى- ومحقّقة لها.

وقد تأتي عبادة غير الله مع اعتقاد الألوهيّة في غيره -تعالى- أو عدمه، كأن يعبد المشركُ غيرَ الله فيؤدّي إليه ما يدلّ على التعظيم، كما كان يفعل عبدة الأوثان، أو كأن يتّبع الهوى أو يحرص على الشهوات وحبّ الدنيا، وأمثال ذلك.

ومقتضى إخلاص العبادة له -تعالى- الانقطاع عمّن عداه، وذلك بحصر العلاقة والاستعانة به، والاتّكال عليه، وطلب الحوائج منه، وأداء التعظيم والتمجيد له. ولا يتنافى ذلك مع طلب الأشياء بأسبابها، إذا عرف الطالب أنّ المسبِّب الحقيقيّ هو الله، والمؤثّر الأوحد والأساس هو -تعالى-.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾:

تقديره: وعليكم بالوالدين، أحسنوا إليهما إحساناً، أو أوصيناكم بالوالدين. والفرق بين الوالدين والأبوين: أنّ الأولى نصّ في الأصول التي يولد منها، بينما الثانية ظاهرة فيهم؛ ما يجعل باب المجاز مفتوحاً لإطلاق اللفظ على المربّي والراعي، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا عليّ، أنا وأنت أَبَوَا هذه الأمّة**»[1].

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة - مؤسّسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ، ط1، ص755.

وقد قَدَّم ذِكْر الوالدين على ذوي القربى، وهما منهم؛ لأنّهما ألصق وأقرب وأعظم حقّاً.

ومن ذوي الحقوق على الإنسان: ذوو القربى، وهم الأرحام؛ واليتامى، وهم الذين فقدوا آباءهم، فباتوا بحاجة إلى عطف الناس ورعايتهم لسدّ النقص الذي نشأ من وفاة الأب؛ والمساكين، وهم أهل الفاقة والشدّة الذين يعانون من ذلّ الحاجة.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾:

حسن المعاشر، والحُسن من القول: ما يبتعد عن الفحش والخنا والإيذاء والبهتان والغيبة وما شابه. والمراد من الناس عموم الناس، فتشمل الكفّار، وأهل الكتاب، والفاسقين، وهي لا تنافي آيات القتال؛ لأنّ القتال له مورد، وحسن المعاشرة له مورد آخر، فوجوب قتالهم لا يمنع من الالتزام بالحسن في القول، عندما لا يكون المقام مقام قتال ولا مقام حرب.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

أي اجعلوها قائمة دائمة بحدودها وأصولها. وقد تقدّم الكلام عنها في بداية السورة.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

أي لأهلها وفي مواردها، وهي على نحوين: زكاة مفروضة، وزكاة مستحبّة قد تجب، فالمفروضة تشمل: زكاة الغلّات، والأنعام، والنقدين (المسكوكات الذهبيّة والفضّيّة)، وزكاة الفطرة، وخمس المكاسب، وبقية الأخماس؛ وأمّا غير المفروضة، فكلّ صدقة أو بذلٍ في مورد الحاجة.

وقد يوسَّع مفهوم الزكاة لغير الأموال: «**لكلّ شيء زكاة، وزكاة العلم تعليمه**»[1].

وأصل الزكاة من النماء أو الطهارة؛ لأنّ أداء الحقّ يوجب البركة، وهو شكر للنعمة، والشكر يستوجب الزيادة، والطهارة؛ لأنّ إخراج الحقوق يطهّر رأس المال ويصفّيه من حقوق الغير.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾:

أي؛ ابتعدتم ونكثتم العهد، ونقضتم الميثاق، وتخلّيتم عمّا ذُكِر كلّه.

والخطاب في الآية لبني إسرائيل، وذلك باعتبار وحدة الحال بين المعاصرين لنزول الوحي ومن سبقهم؛ ولذا يخاطبهم في أكثر من موطن، وينسب إليهم ما فعله أسلافهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾:

وهم الذين آمنوا بالرسول ﷺ، أو الذين ثبتوا على العهد من أسلافهم، وهم قلّة.

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[2].

الآية (84)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾:

يذكّرهم الله -تعالى- في هذه الآية بميثاق آخر أخذه عليهم،

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج4، ص63.
(2) ذكرت من دون تفسير.

وربّما كان الميثاق واحداً غير متعدّد، والتعدّد في الأخذ لجهة تعدّد مضامين الميثاق الواحد.

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾:

نهيٌ عن القتال الذي فيه سفك دماء، والمراد به الاقتتال الداخليّ الذي يسفك فيه بعض الأمّة دم بعض؛ ولذا عبّر بـ«دماءكم». ولا يشمل قطعاً قتال الأعداء، وإنْ كان يؤدّي -عادةً- إلى سفك دمهم، ولكنّ العدوّ هو الذي يسفكه، ولا يكفي مجرّد التعرّض للقتال لنسبة السفك إليهم.

وهذا يذكّرنا بمغالطة ابتدعها عمرو بن العاص عندما استشهد عمّار في صفّين على أيدي الفئة الباغية، وقد كان الناس سمعوا ما قاله له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**تقتلك الفئة الباغية، وآخر زادك من الدنيا صاع من لبن**»[1]، فكان في ذلك خير شاهد على أنّ الفئة الباغية هم أهل الشام أتباع معاوية، فانبرى عمرو بن العاص بحيلة من حِيَله المعروفة، فقال: قتله من جاء به إلى المعركة[2].

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾:

أي لا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم، تهجيراً وإكراهاً على الانتقال نتيجة الحرب التي يشنّها بعضهم على بعض. ويبدو أنّ سياسة التهجير كانت متّبعة عندهم، كما هي الحال في عصرنا الراهن.

(1) الخزاز القمّيّ، عليّ بن محمّد، كفاية الأثر، تحقيق: السيّد عبد اللطيف الحسينيّ الكوهكمريّ الخوئيّ، انتشارات بيدار، إيران - قم، 1401هـ، لا.ط، ص122.

(2) النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1411 - 1991م، ط1، ج٥، ص١٥٧.

وعليه، فالتعبير بدمائكم وأنفسكم ودياركم هو من جهة وحدة الملّة ووحدة الدين، ويدلّ عليه ما يأتي في الآية اللاحقة. وقد تكرّر هذا النحو من التعبير في القرآن، كما في قوله -تعالى-:

- ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾[1].
- ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[2].
- ﴿رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾[3].
- ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾[4].

ويُحتمل في المراد من «الديار»: المنازل، ويحتمل الأوطان، والنتيجة واحدة؛ لأنّه ليس المقصود على الوجهين الإخراج من البيت إلى خارجه، بل الإخراج من البلد والتهجير، فـ«كلّ موضع حلّ فيه قوم، فهو دارهم»[5].

﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾:

الإقرار: الرضى والقبول، وهو في الآية: الرضى والقبول بالميثاق المتقدّم، وأنتم تشهدون على ذلك.

والفرق بين الإقرار والشهادة: أنّ الأوّل يكون قلبيّاً أو قوليّاً، ويكون في البداية عند أخذ الميثاق؛ وأمّا الشهادة فلا بدّ فيها من القول، وتكون بعد الميثاق.

(1) سورة النور، الآية 61.
(2) سورة الحجرات، الآية 11.
(3) سورة التوبة، الآية 128.
(4) سورة الروم، الآية 21.
(5) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج8، ص58 (مادّة «دَوَرَ»).

وقيل: قوله -تعالى-: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ لمجرّد التأكيد، حيث إنّ الشهادة إقرار أيضاً.

الآية (85)

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

توجّه الآية الخطاب إلى اليهود. والتعبير بـ«هؤلاء»: تأكيد للموجودين منهم. والقرآن قد فرض وحدة بين الماضين منهم والحاضرين؛ ولذلك خاطبهم بأكثر من أمر صدر عن الماضين منهم، فالإشارة هنا لتأكيد هذه الوحدة.

﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾:

يدلّ على المراد من أنفسكم ودياركم، في أوّل الآية، هو فعل بعضكم بالآخرين منكم، فتقتلون بعضكم الذين هم كأنفسكم، وتخرجون آخرين من ديارهم على خلاف الميثاق الذي أخذ منكم، والذي أقررتم به وشهدتم عليه.

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾:

لبيان وجه الإخراج من الديار، وأنّه ليس لوجه حقّ، بل لمجرّد الغلبة والاعتداء والإثم.

والتظاهر: التعاون، فهم تعاونوا على الإخراج بالإثم والعدوان، فكأنّ أحدهم شدّ ظهر الآخر ليقدر على القيام بالأمر، قال -تعالى-: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾[1]، ﴿سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[2].

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾:

يأتونكم لكن لا بإرادتهم، وإنّما يؤتى بهم؛ لأنّ الأسارى يُؤخذون في المعركة أخذاً، فهم -إذاً- كانوا يمارسون جميع ما يمارس في الحروب والقتال مع إخوانهم الذين هم على دينهم ومن أهل ملّتهم، ظلماً وعدواناً؛ أي حرباً ليس لها ما يبرّرها شرعاً، فيمارسون في حقّهم القتل والتهجير والأسر، وبعد الأسر يطلبون الفدية لإطلاقهم، على الرغم من أنّ التهجير والأسر كانا محرَّمين عليهم من الأساس.

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾:

فإنَّ بني إسرائيل قَبِلوا بعض الكتاب، والتزموا به عمليّاً، ورفضوا بعضاً منه، وخالفوه.

وقد جعل التمييز بين الأحكام -من حيث القبول والرفض، أو العمل والمخالفة- إيماناً وكفراً؛ باعتبار أنّ الإيمان يدفع الإنسان إلى العمل، فإذا أصرّ على المخالفة، فهذا يكشف عن ضعف في الإيمان ونقصٍ قد يصل إلى انعدامه؛ ولذا كان يكشف عن الكفر.

وقيل: إنّ الكفر على وجوه خمسة؛ أحدها المعصية والمخالفة، وهو مرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد تقدّم ذِكْره.

(1) سورة التحريم، الآية 4.
(2) سورة القصص، الآية 48.

ولعلّ تسمية المعصية كفراً في بعض الآيات من هذه الجهة، قال -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

والاستفهام الوارد في الآية للإنكار؛ لأنّ التفصيل في الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض لا وجه له؛ فإذا كان ثمّة سبب وجيه للإيمان ببعض الكتاب، فمن المفروض أن يكون سبباً للإيمان بالكلّ؛ لأنّ الكتاب إنْ كان من عند الله، وإذا كان الرسول الذي جاء به صادقاً، فهو كلّه من عند الله، وهو صادق في ما جاء به كلّه، وإذ جاز أنْ لا يكون من عند الله، فلا يطمئنّ إلى شيء منه. وإذا كان يجب طاعة المولى -عزّ وجلّ-، فهذا الوجوب في ما جاء به كلّه وما أمر به كلّه دون تفصيل، فالتفصيل من قبل العباد فيه تمرّد على الباري -عزّ وجلّ-، وخروج عن مقتضى العبوديّة، وتجرّؤ على مقام الربوبيّة.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾:

إنّ الآثار المترتّبة على هذه المعاصي على سنخين:

1. آثار دنيويّة مباشرة، بحيث يجد العاصي نتائج معصيته في هذه النشأة. وهي تتعدّد بحسب نوع المعصية وحجمها، ومستوى الإصرار عليها، ودائرة ممارستها. وقد تكون الآثار روحيّة أو مادّيّة تتعلّق بالرزق، وبالبلاءات، والأمراض، والأمن، وأمثال ذلك. ومن هذا القبيل ما ورد في آثار الذنوب في الروايات المأثورة، منها:

(1) سورة آل عمران، الآية 97.

ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**ما من نكبة تصيب العبد إلّا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**»[1].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**إنّ الرجل ليذنب الذنب، فيُحرَم صلاة الليل، وإنّ العمل السيّئ أسرع في صاحبه من السكّين في اللحم**»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**يقول الله -عزّوجلّ-: إذا عصاني من عرفني، سلّطت عليه من لا يعرفني**»[3].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**ما أنعم الله على عبد بنعمة، فسلبها إيّاه، حتّى يذنب ذنباً يستحقّ بذلك السلب**»[4].

وورد عنه عليه السلام -أيضاً- في أحد أدعيته الاستعاذة من الذنوب التي تغيّر النعم، والتي تورث الندم، والتي تنزل النقم، والتي تنزل البلاء، وتديل الأعداء، وتقطع الرجاء، وتظلم الهواء، وتكشف الغطاء، وتردّ الدعاء، وتحبس غيث السماء[5].

وذكرت الآية أنّ جزاء من يفعل ذلك هو الخزي في الحياة الدنيا، فالخزي: الذلّ والصغار، ويتحقّق ذلك بالاقتصاص منهم، وتأديبهم، وإخراجهم من حصونهم، وإسقاط عزّهم ومكتسباتهم، وأخذ الجزية منهم، وتعريضهم للقتل والسبي، والتضييق عليهم:

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص269.
(2) المصدر نفسه، ص271.
(3) المصدر نفسه، ص276.
(4) المصدر نفسه، ص274.
(5) المصدر نفسه، ص589-590.

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[1]، ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾.

2. الآثار الآخرويّة، وهي الأشدّ والأصعب؛ لدوامها وشدّتها وصعوبتها.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

دفع توهّم، فإنّ العاصين قد يتوهّمون عندما يمهلهم الله -تعالى- أنّهم في مأمن من أخذه، أو أنّه غافل عنهم لا يراهم، فيتمادون في المعصية، فأتى التنبيه أنّه -تعالى- ليس بغافل عمّا يعملون، وإذا أمهل، فلن يُهمل.

وإذا كان ما يدفعهم إلى مخالفة الكتاب وإنكار بعضه، أو نقض العهود والمواثيق، هو اعتقادهم أنّ الله -تعالى- يغفل عن أعمالهم ولا يرصدها، فهم مخطئون في ذلك؛ لأنّ الله -تعالى- لا تأخذه سِنَة ولا نوم، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وما الله بغافل عمّا يعملون، فهو يحصيه ويكتبه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها.

الآية (86)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾:

التعبير بالبيع والشراء في مجال التعامل مع الرسالة الإلهيّة كثير في القرآن الكريم. وهنا الحديث عن أولئك الذين خالفوا العهود،

(1) سورة الأنفال، الآية 46.

ونقضوا المواثيق، وعصَوا، واعتدَوا، وخالفوا أحكام الله -تعالى-، فهم إنّما فعلوا ذلك؛ تمسّكاً منهم بالحياة الدنيا وزخارفها، وغفلةً عن الآخرة وحسابها، فكأنّهم في مقام المبادلة والمفاضلة فضّلوا أمور الدنيا على الآخرة، وكأنّهم باعوا الآخرة واشترَوا الدنيا. ومن باع آخرته بدنياه أو اشترى الدنيا بالآخرة، فلن يبقى له نصيب فيها، ولا حظّ منها، إلّا العذاب الذي ينتظره والذي كان لا يؤمن به. ولن يجد من يدفع عنه العذاب، فينتصر به.

الآية (87)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾:

عودة لتذكير اليهود بما منّ الله -تعالى- به عليهم؛ من الرسل والبيّنات، وما كانوا يقابلونهم به من استكبار، وإنكار، وتكذيب.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾:

أي التوراة.

﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾:

حيث إنّ الأنبياء عليهم السلام جاؤوا مترادفين، وقيل: لم تنقطع الرسل بين موسى وعيسى، فلم يمرّ زمن دون نبيّ، وبينهما على ما قيل 14 قرناً.

فالتقفية الاتّباع؛ بحيث يأتي كلّ منهم في عقب الآخر.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

وهي الدلائل الواضحة التي جاء بها.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾:

قيل: هو جبرائيل، وقيل: هو الإنجيل، وقيل: هو الاسم الذي كان يحيي به الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص.

وقد دلّت الآية الشريفة على أنّه غير الإنجيل؛ استناداً إلى المغايرة في قوله -تعالى-: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[1]، فلو كان المراد بروح القدس الإنجيل، لكان تكراراً، فيبقى الاحتمالان الآخران.

روي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام: «**يا جابر، إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح؛ روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوّة، وروح الشهوة، فبروح القدس، يا جابر، عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى، ثمّ قال: يا جابر، إنّ هذه الأربعة أرواح يصيبها الحدثان إلّا روح القدس، فإنّها لا تلهو ولا تلعب**»[2].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**يا مفضّل، إنّ الله -تبارك وتعالى- جعل في النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أرواح: روح الحياة؛ فبه دبّ ودرج، وروح القوة؛ فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة؛ فبه أكل**

(1) سورة المائدة، الآية 110.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص272.

وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه آمن وعدل، وروح القدس؛ فبه حمل النبوّة، فإذا قبض النبيّ ﷺ انتقل روح القدس، فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به»[1].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «أيّدهم (أي رسل الله) بروح القدس، فبه عرفوا الأشياء»[2].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «أنّ الله -تبارك وتعالى- خلق روح القدس، فلم يخلق خلقاً أقرب إليه منها، وليست بأكرم خلقه عليه، فإذا أراد أمراً ألقاه إليها، فألقاه إلى النجوم فجرت به»[3].

وقد ذَكَر القرآن الكريم روح القدس في أربعة مواضع، ثلاثة منها في عيسى بن مريم عليه السلام وتأييده به، والرابعة في نبيّنا ﷺ، وهي: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[4].

وظاهر هذه الآية أنّ المراد من روح القدس هو جبرائيل عليه السلام الذي كان ينزل بالقرآن على قلب النبيّ ﷺ[5].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص272.
(2) المصدر نفسه، ص271-272.
(3) العيّاشيّ، تفسير العيّاشيّ، مصدر سابق، ج2، ص270.
(4) سورة النحل، الآية 102.
(5) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص390.

وسمّى القرآن الكريم جبرائيل الروح الأمين: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[1]، وسمّاه روحاً في قوله -تعالى-: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[2]، وقوله -تعالى-: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[3].

وكون روح القدس هو جبرائيل عليه السلام يتّفق مع كونه به يعرف الأنبياء عليهم السلام الأمور، وبه يُحيي عيسى عليه السلام الموتى، ويكلّم الناس في المهد؛ لأنّه المنفِّذ لإرادة الله التكوينيّة في الأشياء، والحامل للوحي والنازل به على الأنبياء عليهم السلام.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾:

فمن موسى عليه السلام حتّى عيسى عليه السلام ومَن بينهما من أنبياء، كانت سيرة اليهود التي لم تتغيّر هي أنّهم جعلوا ميزان القَبول بما جاء به الرسول أو الرفض أهواءهم ومصالحهم، فإذا وجدوا في ما جاءهم به الرسل ما يوافق أهواءهم وما ينسجم مع أنفسهم أخذوه، وإذا وجدوا أنّه لا يتوافق مع هوى النفس أخذتهم العزّة بالإثم واستكبروا، وكذّبوا الرسل أو أقدموا على قتلهم.

والنقطة المحوريّة في هذا المقام تتركّز في الموازين والمعايير التي على أساسها يكون الرضى أو الرفض، والقبول أو الردّ.

(1) سورة الشعراء، الآيتان 193 - 194.
(2) سورة مريم، الآية 17.
(3) سورة المجادلة، الآية 22.

ومقتضى الإقرار بالعبوديّة والتسليم لأمر الله، أن يرضى العبد بما يأمره به مولاه دون تردّد، ودون أن ينظر إلى قلبه وأهوائه وما تشتهيه نفسُه.

وأمّا إذا كان المعيار والميزان التوافق مع هوى النفس، فإنّ الرضى بما جاءهم من عند الله بحيث يكون موافقاً لما تهوى أنفسهم، لن يكون داخلاً في مصاديق الطاعة؛ لأنّها ليست طاعة للمولى لمولويّته، وإنّما هي طاعة لهوى النفس وما يوافقها.

والمؤسّف، أنّنا نرى اليوم بعض الناس يختارون في تقليدهم واختيارهم لمرجعهم ما يتوافق مع أهواء النفس، ولا يعتمدون الموازين الشرعيّة التي قد توصلهم إلى خيارات لا توافق أهواءهم.

وقد ورد في كثير من الروايات الحثّ على مخالفة الهوى، وجعلها ميزاناً لمعرفة الصواب عند اشتباه الأمور، منها:

ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: أشجع الناس من غلب هواه**»[1].

وعنه عليه السلام: «**من أطاع هواه، فقد أطاع عدّوه**»[2].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «**إذا مرّبك أمران لا تدري أيّهما خير وأصوب، فانظر أيّهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإنّ كثير الصواب في مخالفة هواك**»[3].

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج67، ص76.
(2) ابن شعبة الحرّانيّ، الحسن بن عليّ، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، 1404هـ - 1363ش، ط2، ص304.
(3) المصدر نفسه، ص398.

الآية (88)

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

هذه الآية شبيهة بقوله -تعالى- حكاية عن الكفّار: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾[1]. وقريب منها قوله -تعالى-: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2].

﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾:

أي عليها أغلفة تمنع من فقه ما يأتيهم به النبيّ ﷺ، فهم يزعمون وجود حجاب يمنعهم من الإيمان، ويقصدون بذلك الأغطية أو الحجب الذاتيّة الخارجة عن قصدهم وإرادتهم، لكنّ الله ينفي ذلك، ويثبت أنّهم كفروا، فلعنهم الله بكفرهم، فقليلاً ما يؤمنون نتيجة ذلك.

وغُلفٌ جمع أغلف، مثل أحمر وحُمر. واللعن الإبعاد والإقصاء.

وتتضمّن بعض الآيات نسبة جعل الأكنّة وما شابهها إليه -تعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾[3]، ومثله قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾[4]، ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[5].

(1) سورة فصلت، الآية 5.
(2) سورة النساء، الآية 155.
(3) سورة الكهف، الآية 57.
(4) سورة يس، الآية 8.
(5) سورة يس، الآية 9.

فإنْ صحّ أن يكون المانع من الإيمان هو الأكنّة والأغلال والسدّ والغشاوة، وكان ذلك كلّه خارجاً عن إرادتهم، ومفروضاً عليهم بغير اختيارهم، لكانوا مغرّراً بهم، كما قالوا لنبيّهم.

والجواب عن ذلك كلّه وعمّا يشبهه من إشكالات الجبر التي هي الظاهر البدويّ لبعض الآيات، أنّه -تعالى- لا يلعن أحداً، ولا يحكم على أحد بالضلالة وغيرها، إلّا بمقدّمات إراديّة اختياريّة تستوجب ذلك، وهنا لعنهم الله -تعالى- بسبب كفرهم، وحال بينهم وبين رؤية الحقّ بسبب تماديهم في الضلالة والغيّ، وهذا غير ما زعموه من وجود موانع من الفهم بشكل ذاتيّ. نعم، ثمّة موانع غير ذاتية، تنشأ من سوء الاختيار، وتجرّ الإنسان إلى عمى البصيرة، وعدم التوفيق، والوقوع في الضلال، وفي مقدّمة هذه الأمور التي توصل الإنسان إلى مصيره السيّئ: تعلّقه بالدنيا وإرادة الارتباط بها، قال -تعالى-: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾[2]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[3].

روي عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «**حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة**»[4].

(1) سورة الإسراء، الآيات 18-20.
(2) سورة العنكبوت، الآية 69.
(3) سورة الصف، الآية 5.
(4) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص131.

«إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب انمحت، وإن زاد زادت، حتّى تغلب على قلبه، فلا يفلح بعدها أبداً»[1].

والآية الشريفة رتّبت اللعن والإبعاد على الكفر: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾.

﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

أي لا يرتجى منهم الإيمان بعد ذلك.

الآية (89)

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

المراد بالكتاب هو القرآن، وهو مصدّق لما معهم من التوراة في أنّها منزّلة، ومصدّق لما فيها من حقائق سماويّة. وكان اليهود قبل بعثة الرسول ﷺ يقيمون في يثرب انتظاراً للبعثة، ويستفتحون على أهل يثرب؛ أي يستنصرون بالنبيّ الآتي عليهم، ويهدّدونهم أنّه إذا بُعث النبيّ، فسوف يخرجونهم من الجزيرة.

وقد روي عن معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أنّهما قالا لهم: «يا معشر اليهود! اتّقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمّد ﷺ، ونحن أهل الشرك، وتصفونه، وتذكرون أنّه مبعوث...»[2].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص271.
(2) الطبرسيّ، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصائيّين، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، ط1، ج1، ص299.

وروي أنّ أسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد قيس قَدِما مكة، وهما من الخزرج، وكان بينهم وبين الأوس حروب دامية مستمرّة، آخرها حرب بعاث التي انتصر فيها الأوس على الخزرج، فخرج أسعد وذكوان إلى مكّة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه، وعرض عليه حالهم مع الأوس، وطلب منه الحلف عليهم، فقال له عتبة: بعدت دارنا من داركم، ولنا شغل لا نتفرّغ لشيء. قال: وما شغلكم، وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا. فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطّلب من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً. وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين بينهم أنّ هذا أوان نبيّ يخرج في مكّة يكون مهاجره بالمدينة «لنقتلنّكم به يا معشر العرب». فلمّا سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود. قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر. ثمّ أوصاه: فلا تسمع منه ولا تكلّمه؛ فإنّه ساحر يسحرك بكلامه. فقال له أسعد: فكيف أصنع، وأنا معتمر، ولا بدّ لي من أن أطوف بالبيت؟ قال: ضع في أذنيك القطن. فدخل أسعد المسجد، وقد حشا أذنيه القطن، فطاف بالبيت، ورسول الله ﷺ جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فلمّا كان في الشوط الثاني، قال في نفسه: ما أجد أجهل منّي، أيكون مثل هذا الحديث في مكّة فلا أتعرّفه حتّى أرجع إلى قومي فأخبرهم؟ ثمّ طرح القطن من أذنيه وجاء لرسول الله ﷺ، فقال: أنعم صباحاً، فرفع رسول الله ﷺ رأسه إليه، وقال: **قد أبدلنا الله**

به ما هو أحسن من هذا، تحيّة أهل الجنّة: السلام عليكم. فقال له أسعد إنّ عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعو يا محمّد؟ قال: **إلى شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، وأدعوكم إلى أنْ لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ، ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلّف نفساً إلّا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أَوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكّرون.** فلمّا سمع أسعد هذا قال له: أشهد أنْ لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله. يا رسول الله بأبي أنت وأمّي، أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين إخواننا من الأوس حبال مقطوعة، فإنْ وصلها الله بك، ولا أجد أعزّ منك، ومعي رجل من قومي، فإنْ دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمّ الله لنا أمرنا فيك، والله يا رسول الله، لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، ويبشّروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن يكون دارنا دار هجرتك، عندنا مقامك، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئت إلّا لنطلب الحلف على قومنا، وقد آتانا الله بأفضل ممّا أتيت له. ثمّ أقبل ذكوان، فقال له أسعد: هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشّرنا به، وتخبرنا بصفته، فهلمّ وأسلم، فأسلم، ثمّ قالا: يا رسول الله، ابعث معنا رجلاً يعلّمنا القرآن، ويدعو الناس إلى أمرك.

فأرسل معهم مصعب بن عمير، وقد كان أغلب من آمن على يد مصعب بن عمير من أهل المدينة، حيث دفعهم إلى ذلك ومهّد لهم إخبار اليهود إيّاهم به[1].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

فقد جاءهم الرسول ﷺ بما عرفوا من الدين والإسلام والكتاب الذي كان يبشّرهم به أنبياؤهم عليهم السلام، وأخبروا العرب به قبل الإسلام، واستفتحوا عليهم به، لكنّه عندما جاءهم أسرعوا إلى الكفر به.

فلماذا كفر اليهود بمحمّد ﷺ بعد أن انتظروه طويلاً وعرفوا مبعثه ومهجره؟!

لعلّ ذلك نشأ من حسدهم لمن أسرع إلى الإيمان من العرب ممّن كانوا يستفتحون عليهم به، أو لأنّهم كانوا يتوقّعون خروجه فيهم وبينهم دون غيرهم، أو لأنّ الاستكبار الذي كان يمنعهم في السابق منعهم حينها، أو لأسباب أخرى، كشعورهم بالخطر على دنياهم وزعامتهم وما شابه ذلك.

الآية (90)

﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾:

(1) الطبرسيّ، الشيخ الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، 1417هـ، ط1، ج1، ص138.

هذه الآية بيان لسبب كفرهم بعد العلم، وهو البغي، والحسد، والاستكبار.

وأصل بئس: فعل من البؤس؛ أي بَئِس، ثمّ أُسكِنت الهمزة، ونُقِلَت حركتها إلى الباء، ثمّ صارت للدلالة على الذمّ والتوبيخ، وعلى عكسها نِعم للدلالة على المدح.

﴿مَا﴾:

اسم بئس، و﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾: صلة أو تفسير له.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾:

قيل: معناه باعوا أنفسهم بالكفر بما أنزل الله. وهو خلاف الاستعمال العرفيّ، حيث إنّ المعروف أنّ شرى بمعنى باع، واشترى بمعنى ابتاع، فالأصحّ أنّهم هنا أرادوا أنفسهم وسلامتها، فهم اشتروها، بمعنى طلبوها وأبقوها، فكفروا وجعلوا الكفر ثمناً لأنفسهم، فالمعاوضة بين النفس وما تأمر به من الهوى والتعلّق بالدنيا، وبين الإيمان الذي يفرض مخالفة الهوى والزهد بالدنيا، فتخلّوا عن الثاني لأجل الأوّل، فهذه المعاوضة أشبه بالشراء والبيع، فهم اشتروا الأوّل بالثاني؛ أي بالكفر الذي هو تخلٍّ عن الإيمان.

فقوله: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

تفسير أو بيان للضمير المجرور بالباء، أو لما اشتروا به أنفسهم، فكأنّه قال: بئس الشيء شيئاً اشتروا أنفسهم أن يكفروا، فتكون ﴿مَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ مفسّرة لفاعل بئس المحذوف.

﴿بَغۡيًا﴾:

مفعول لأجله، ومعناه فساداً وتعدّياً؛ أي أنّ البغي بنظرهم هو في تنزيل الله -تعالى- من فضله على من يشاء من عباده ممّن لا يتوافق مع أهوائهم، ولا ينسجم مع رغباتهم.

والمقصود هنا بمعونة السياق في الآيات السابقة: أنّهم عندما جاءت النبوّة التي انتظروها، والتي كانوا يستفتحون بها على الكافرين، والتي كانوا يعتقدونها ويعرفون علامات صاحبها كما يعرفون أبناءهم دون ريب ولا شكّ، وأُمِروا بالإيمان والطاعة، فكبُر ذلك في نفوسهم، وخافوا على امتيازاتهم وعلى دنياهم، وتحرّك الحسد في أنفسهم عندما سبقهم إلى الإيمان عرب المدينة، ولم تظهر النبوّة في زعمائهم الذين كانوا يرجون نزول النبوّة عليهم.

وما ينزّله الله من فضله هو الوحي والنبوّة على من يشاء من عباده ممّن اصطفاهم واختارهم، وخبرهم، وعرف فيهم الطهارة والصفاء والأمانة والقوّة على تحمّل النبوة وأداء الرسالة.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾:

فبعد الكفر والمعاوضة التي تحدّثت عنها الآية، عادوا بغضب، فهم لم يرجعوا من تجارتهم بربح، وإنّما رجعوا بمحصّلّة أخرى، وهي الغضب الإلهيّ المضاعف.

ويُحتمل في قوله -تعالى-: ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾ أمور، هي:

1. إنّه من باب تشديد الغضب؛ أي تشديد مراتبه؛ لشدّة ما فعلوه وعِظَم شناعته.

2. إنّه من باب تكرار أسبابه، الموجب لتكرار النتيجة والمضاعفة فيه.

وعلى الاحتمال الثاني، فما هي أسباب الغضبين؟

وقد ذُكِرَ فيها وجوه، هي:

1. إنّ الغضب الأوّل حين عبدوا العجل، والثاني حين كفروا بالرسول ﷺ.
2. إنّ الغضب الأوّل حين غيّروا التوراة، والثاني حين كفروا بالرسول ﷺ.
3. إنّ الغضب الأوّل حين كفروا بعيسى عليه السلام، والثاني حين كفروا بالرسول ﷺ.

ويحتمل أن يكون المراد الغضب في الدنيا والغضب في الآخرة؛ باعتبار الآثار الدنيويّة للكفر والعقاب الأخرويّ له.

وعلى أيّ حال، فإنّ الغضب هنا غضب الباري -عزّ وجلّ-، وقد تقدّم قوله -تعالى-: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1]، ومثله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[3].

ونسبة الغضب إليه -تعالى- تعني إرادة العقاب لهم؛ لأنّ هذه الصفة وأمثالها عندما تنسب إليه -تعالى، فلا بدّ من أن تكون متناسبة مع شأنه -تعالى-؛ إذ ليس الغضب حالة غليان وتأثّر

(1) سورة البقرة، الآية 61.
(2) سورة آل عمران، الآية 112.
(3) سورة الأعراف، الآية 152.

عند الغاضب، كما هي بالنسبة إلى البشر، ولكن بالنظر إلى الآثار والنتائج التي هي فرض العقاب.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾:

يوم القيامة؛ لأنّهم إنّما دفعهم إلى الكفر المكابرةُ والحسد، وليس قلّة الدليل ونقص الدلالات، فالعذاب مهين يُذيقهم طعم الهوان والذّل؛ لأنّ العذاب يقابل الفعل دائماً.

الآية (91)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

يمكن أن يكون العطف الوارد في الآية على بيان البغي في الآية السابقة، ويمكن أن يكون على ما تقدّم من الأمور التي عدّدتها الآيات السابقة من أفعال ومواقف لبني إسرائيل.

والمراد ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: هو القرآن والوحي النازل على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

والمقصود من القول الوارد في الآية، كما في كثير من الآيات التي تلخّص دعوة الأنبياء عليهم السلام، هو القول المتضمّن للأدلّة والبيّنات، وإلّا لما كان حجّة!

ولم يظهر من الآية تشكيك اليهود في النزول أو في البعثة النبويّة، وإنّما كان ردّهم ورفضهم من منطلق الأنانيّة والذاتيّة، والاقتصار على الموجود بين أيديهم، مع أنّهم لم يؤدّوا حقّ ما في أيديهم: ﴿قُلۡ

﴿فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾:

وهو التوراة؛ والمقصود الإيمان على نحو الحصر والوقوف عليه.

كيف صحّ قولهم: أُنزل علينا، مع أنّ النازل كان على موسى عليه السلام؟

والجواب: أنّهم اعتبروا أنفسهم أهل ملّة واحدة؛ هم وقوم موسى عليه السلام؛ بحيث وحّدت بينهم الملّة والديانة، فما نزل على أوّلهم فهو نازل على آخرهم بهذا الاعتبار.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾:

أي بما سواه، وبما عداه ممّا نزل على الأنبياء عليهم السلام اللاحقين من الإنجيل والقرآن. وهذا الرفض والإنكار والكفر قبيح من جهات عدّة، هي:

1. إنّ التوراة لم تنفِ إنزال الكتب المتأخّرة وبعثة الأنبياء عليهم السلام اللاحقين؛ ليحقّ لهم الكفر بهم.
2. إنّ دلائل الأنبياء عليهم السلام والكتب المتأخّرة تثبت أنّها حقّ، وإنكار الحقّ غير جائز.
3. إنّ التوراة نفسها بشّرت بمن جاء بعدها، فالكفر بهم كفر بالتوراة أيضاً؛ لأنّه يؤول إلى تكذيبها.

(1) سورة آل عمران، الآية 93.

ما هو دور تصديق اللاحق بالسابق في إقامة الحجّة؟

ورد التنصيص على هذا المعنى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كما في قوله -تعالى-:

1. ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾[1].
2. ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾[2].
3. ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[3].
4. ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[4].
5. ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾[5].
6. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾[6].
7. ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ﴾[7].
8. ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[8].
9. ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾[9].
10. ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[10].
11. ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾[11].

---

(1) سورة البقرة، الآية 91.
(2) السورة نفسها، الآية 41.
(3) سورة آل عمران، الآية 3.
(4) سورة البقرة، الآية 97.
(5) سورة آل عمران، الآية 50.
(6) سورة النساء، الآية 47.
(7) سورة المائدة، الآية 46.
(8) السورة نفسها، الآية 48.
(9) سورة فاطر، الآية 31.
(10) سورة الأحقاف، الآية 30.
(11) سورة الصف، الآية 6.

ففي هذه الآيات كلّها، تعدّت التصديق باللام، ومعناه التحقيق، قال -تعالى-: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ﴾[1]؛ أي حقّقتها، وإذا تعدّت باللام كان أوضح بتحقيق ما جاء به السابق؛ ليكون اللاحق مصدّقاً له، محقّقاً لما جاء فيه من الوعد والبشارة، وأمّا إذا تعدّى التصديق بالباء كان قَبولاً به، وحكماً بتصديقه، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾[2]، ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾[3]، ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾[4]، ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[5].

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

أي قل، يا محمّد، لأهل الكتاب الذين يرفضون الإيمان بك ﷺ وبالقرآن الكريم، زاعمين أنّهم يؤمنون بالتوراة ويكفرون بما عداها، على الرغم من أنّ ما عداها -ممّا رفضوه- حقّ، ومصدّق لما معهم، ومحقّق لما فيه من البشارة والوعد، فقل لهؤلاء: إن كنتم محقّين في إيمانكم بما أنزل إليكم، فلماذا -إذاً- تقتلون أنبياء الله الذين جاؤوكم بما أنزل عليكم، ولم يأتوكم بكتاب جديد؟ وأنبياء الله الذين أقدموا على قتلهم كانوا على دينهم الذي يدينون به.

وتجدر الإشارة إلى أنّ كثيراً من أهل الكفر والعناد يتذرّعون لرفض الحقّ وإنكاره بذرائع باطلة، كأهل الكتاب؛ وذلك لأنّهم لا ينطلقون في إنكارهم من موقع الباحث الذي لم تكتمل لديه الحجّة

(1) سورة الصافات، الآية 105.
(2) سورة الليل، الآية 6.
(3) سورة الزمر، الآية 33.
(4) سورة التحريم، الآية 12.
(5) سورة المعارج، الآية 26.

ولم ينهض عنده الدليل، وإنّما من موقع المكابرة والعنصريّة والأنانيّة.

الآية (92)

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾:

استمرار في تذكير بني إسرائيل بعنادهم وغدرهم وكفرهم واستكبارهم، فحتّى النبيّ موسى عليه السلام صاحب الرسالة التي يزعمون الانتساب إليها والإيمان بها، عندما جاءهم بها، وبالبيّنات والدلائل المثبتة لها ولأحقّيّتها سارعوا إلى اتّخاذ العجل وعبادته عندما غاب عنهم، فكانوا ظالمين بذلك. فالمسألة -إذاً- ليست كما يزعمون، إنّما هي ما اعتادوا عليه من الغدر، والإفساد، والتحريف، والعناد.

الآية (93)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

تقدّم الحديث عن الميثاق في الآيتين (83-84) من هذه السورة. وفي هذه الآية ذِكْر للميثاق المأخوذ عليهم؛ لمناسبة تعداد الحالات التي أثبتوا فيها عدم الإيمان بما أُنزل عليهم ردّاً على قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾[1].

(1) سورة البقرة، الآية 91.

وقد تطرّق القرآن الكريم إلى قصّة رفع الطور فوق رؤوسهم في مواضع عدّة، كما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾[1]، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾[3].

والمراد بالطور هو طور سيناء، وقيل: إنّ طور سيناء أو طور سينين هو كلّ جبل يكون عليه ما ينتفع به من النبات والأشجار، وما ليس فيه ذلك، فهو طور لا يقال له طور سيناء؛ وقيل: هو جبل معروف في منطقة سيناء.

وفي تفسير الإمام العسكريّ عليه السلام: «**أنّ الله -تعالى- أمر جبرائيل أن يقطع من جبل فلسطين قطعة فرسخ في فرسخ، فقطعها وجاء بها فوق رؤوس القوم، وقال لهم موسى عليه السلام: إمّا أن تأخذوا بما أُمِرتم به فيه، وإمّا أُلقي عليكم هذا الجبل، فنظروا إليه فوقهم، وخافوا على أنفسهم، فسجدوا وعفّروا خدودهم كارهين، إلّا من عصمه الله، فسجد مختاراً طائعاً**»[4].

وهو دليل أنّهم كانوا من المكابرين المعاندين، حتّى رأَوا العذاب بأعينهم، فأذعنوا مكرهين. وأيّ فضل لمن يذعن مكرهاً، ويقبل مرغماً تحت طائلة التهديد والوعيد المحسوس؟

(1) سورة البقرة، الآية 63.
(2) سورة الأعراف، الآية 171.
(3) سورة النساء، الآية 154.
(4) انظر: التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهديّ عليه السلام، قم المقدسة، 1409، ط1، ص226.

ولرفع الطور -كما تقدّم في تفسير الآية 63 من السورة نفسها- دلالتان، هما:

1. إعجازيّة تظهر قدرة الله -تعالى-.
2. تحذيريّة في مواجهة عنادهم وكفرهم.

لكنْ هل يؤدّي مثل هذا التهديد والتحذير إلى الإكراه النافي للاختيار والمتنافي مع شروط التكليف؟!

والجواب: إنّ الآية لا تدلّ على أزيد من الإخافة والإرهاب، ولو كان مجرّد رفع الجبل فوقهم إكراهاً لهم على الإيمان والعمل، لكانت أغلب معجزات موسى عليه السلام موجبة للإكراه. ومهما يكن، فإنّ الله -تعالى- توعّد العاصين بالعذاب الذي هو أصعب وأشدّ من الإهلاك بإسقاط الجبل فوق الرؤوس، ولكنّ الفرق هنا أنّ العاصين ربّما غفلوا عن الوعيد لغيابه عن حواسّهم، بخلاف هؤلاء الذين رأوا العذاب بأعينهم ولمسوه بحواسّهم[1].

الآية (94)

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

في هذه الآية بيان لدعوى اليهود في أنّ الآخرة والعاقبة لهم، وأنّهم أسياد الخلق في الدنيا والآخرة، فهم المقرّبون والفائزون عند الله. ولا شكّ في أنّ هذا النوع من الادّعاء ينطوي على مجموعة مزاعم أو خلفيّات:

(1) انظر: العلامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص198.

1. الشعور العنصريّ (العصبيّة)، وقد عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1]، وإلاّ لماذا يغلق الله جنّته أمام غيرهم، وإنْ كان من أهل التقوى والعمل الصالح، حسب زعمهم؟

2. دعوى أنّ الديانة الصحيحة منحصرة فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾[2]، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾[3]. والترديد بحسب الفئات أنّ قول اليهود كونوا هوداً، وقول النصارى كونوا نصارى، تهتدوا، والله العالم. وردّ عليهم الباري بقوله: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[4].

3. زعمهم أنّ العذاب لن يشملهم، وإذا شملهم لبعض أخطائهم، فهو شيء قليل لا يُذكر: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾[5].

وهذا كلّه ينطوي على نظرة عنصريّة وشعور بالكبرياء والعظمة، وأنّهم فوق البشر، وأنّهم الخواصّ؛ وذلك لا لعمل قدّموه، ولا لإيمان ترسّخ في قلوبهم، ولا لطاعة خالصة أظهروها، بل لمجرّد انتسابهم إلى أنبياء الله العظام عليهم السلام، وذلك يشفع لهم جميع ما يفعلونه من تجاوزات ومعاندات...!

(1) سورة المائدة، الآية 18.
(2) سورة البقرة، الآية 111.
(3) السورة نفسها، الآية 135.
(4) السورة نفسها، الآية 111.
(5) السورة نفسها، الآية 80.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

وهو ما يثبت كذبهم في الدعوى السابقة. وكراهية الموت تكشف عن أمرين:

1. التعلّق بالدنيا، حيث يقول -تعالى-: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾.
2. الخوف من الآخرة، والموت هو جسر العبور نحوها، فلو كانوا على يقين من حظوتهم ونجاتهم ومنزلتهم المزعومة عند الله، فلماذا لا يتمنّون الانتقال إليها بسرعة؟! ولمّا كانوا لا يتمنّون ذلك، فهو دليل على كذبهم في ما يزعمون ويدّعون.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**جاء رجل إلى أبي ذرّ، فقال: يا أبا ذرّ، ما لنا نكره الموت؟! فقال: لأنّكم عمّرتم الدنيا وأخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب**»[1].

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الاحتجاج على اليهود في سورة الجمعة، بقوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾[2]. وهذه الآية تفسّر المراد في الآية السابقة، حيث قال -تعالى-: ﴿إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾، فالدار الآخرة لهم بادّعاء أنّهم أولياء الله.

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص458.
(2) سورة الجمعة، الآيتان 6 - 7.

الآية (95)

﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

وفي هذه الآية -كما في الآية (6) من سورة الجمعة- إظهار لإعجاز القرآن، حيث أخبر أنّهم لا يتمنّون الموت، وهم على ذلك حتّى يومنا هذا.

وسبب كراهية الموت ورد في الآية في قوله -تعالى-: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ﴾، وهو ما عبّر عنه أبو ذرّ الغفاريّ بقوله: «لأنّكم عمّرتم الدنيا وأخربتم الآخرة». وقد تناولت الآيات السابقة جملة من المواقف والممارسات التي تدخل في إطار العناد، ومخالفة الرسل، والتجرّؤ على الله، وكتمان الحقّ، وتحريف الكتاب، وأمثال ذلك.

روي عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: «**سمعت أبي يحدّث عن أبيه: أنّ رجلاً قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، بمَ عرفت ربّك؟ قال: بفسخ العزائم...** (إلى أن قال:) **فبماذا أحببت لقاءه؟ قال: لمّا رأيته اختارلي دين ملائكته ورسله وأنبيائه، علمت بأنّ الذي أكرمني بهذا ليس ينساني، فأحببت لقاءه**»[1].

وعنه عليه السلام -أيضاً-، عن أبيه عليه السلام، قال: «**أتى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم رجل، فقال له: ما لي لا أحبّ الموت؟ فقال له: ألك مال؟ قال: نعم، قال: فقدّمته، قال: لا، قال: فمن ثمّ لا تحبّ الموت!**»[2].

(1) البرقيّ، المحاسن، مصدر سابق، ج1، ص239.
(2) الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ص13.

وقد ورد النهي عن تمنّي الموت جزعاً، فعن رسول الله ﷺ: «**لا يتمنّينّ أحدكم الموت لضرّ نزل به، لكن ليقل: اللهمّ أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»[1].

الآية (96)

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾:

تفيد الآية أنّ الحرص على الحياة لا ينجي من الموت، ولا ينجي من ملاقاة العذاب. وأحرص الناس على الحياة أكثر الناس تعلّقاً بالدنيا ومحبّة لها.

الآية (97)

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

روي في مناسبة نزول الآية عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ: أنّ أحد زعماء اليهود وعلمائهم (عبد الله بن صوريا) سأل رسول الله ﷺ مسائل عدّة تعنَّتَه فيها، فأجابه عنها الرسول ﷺ بما لم يجد إلى إنكار شيء منه سبيلاً، فقال له: «يا محمّد، من يأتيك بهذه الأخبار عن الله -تعالى-؟ قال: **جبرائيل**. فقال: لو كان غيره يأتيك بها لآمنت بك، ولكنّ جبرائيل عدوّنا من بين الملائكة، فلو كان ميكائيل

(1) مسلم النيسابوريّ، مسلم بن الحجّاج، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط. ج8، ص64.

أو غيره سوى جبرائيل يأتيك بها لآمنت بك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **ولمَ اتّخذتم جبرائيل عدوّاً؟** فقال: لأنّه ينزل بالبلاء والشدّة على بني إسرائيل، ودفع دانيال عن قتل بخت نصّر حتّى قوي أمره وأهلك بني إسرائيل، وكذلك كلّ بأس وشدّة لا ينزلها إلّا جبرائيل، وميكائيل يأتينا بالرحمة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ويحك، أجهلت أمر الله؟! وما ذنب جبرائيل إن أطاع الله فيما يريده لكم، أرأيتم ملك الموت أهو عدوّكم وقد وكلّه الله -تعالى- بقبض أرواح الخلق؟ أرأيتم الآباء والأمّهات إذا وجروا الأولاد الأدوية الكريهة لمصالحهم يجب أن يتّخذهم أولادهم أعداء من أجل ذلك؟ لا ولكنّكم بالله جاهلون، وعن حكمته غافلون، أشهد أنّ جبرائيل وميكائيل بأمر الله عاملان وله مطيعان، وإنّه لا يعادي أحدهما إلّا من عادى الآخر، وأنّه من زعم أنّه يحبّ أحدهما ويبغض الآخر فقد كذب**»[1].

وذُكِرَ في مرجع الهاء الأولى والثانية في قوله -تعالى-: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ وجهان، هما:

1. إنّ الهاء الأولى تعود إلى جبرائيل، والثانية إلى القرآن، كما في قوله -تعالى-: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2].
2. إنّ الهاء الأولى تعود إليه -تعالى-، والثانية إلى جبرائيل.

(1) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، مصدر سابق، ص406-407.
(2) سورة الشعراء، الآيتان 193 - 194.

الآية (98)

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

تشير هذه الآية إلى أنّه لا يمكن التفصيل بين العداوة للملائكة وبين العداوة لله -تعالى-؛ لأنّهم لا يعصون الله ما أمرهم، ولأنّهم رسله إلى أنبيائه عليهم السلام، فأيّ عداوة للملائكة، هي عداوة موجّهة إليه -تعالى-، ولكنّهم لا يصرّحون بذلك؛ ولذلك جمعهم في الآية الثانية.

والعداوة هنا تشكّل باباً للرفض، ولو كان هو الحقّ، وهي تُوجب تعطيل الإنصاف والتجرّد والإذعان للحقّ.

وحقيقة الأمر، أنّ العداء المعلن من قِبَل الإنسان هو عداء الضعيف للقويّ، والمحتاج للغنيّ، والعاجز للمقتدر، فهو يعود عليه بالسوء ولا يضرّ الله -تعالى- شيئاً؛ ولذلك، فمن كان عدوّاً لله وملائكته؛ أي ناصباً لهم العداوة، فإنّ الله عدوّ للكافرين، ومن يعادي هؤلاء، فهو كافر، والله -تعالى- عدوّ لهم، وإذا كان الله عدوّاً لهم فهم الخاسرون وهم المتضرّرون.

الآية (99)

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

في هذه الآية إشارة إلى سبب الكفر، وهو الفسق، فإنّ الفاسق منحرف عمليّاً، يتّبع الشهوات، ويتعلّق بالدنيا، ويرتكب الآثام، وهذا الأمر يدفعه إلى المعاندة؛ وذلك لأنّ بصيرته تعمى، وقلبه يتلوّث بالمعاصي، فلا يرى الحقّ الواضح والآيات البيّنات. وقيل:

إنّ اللام في ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ للعهد الذكريّ، إشارة إلى ما تقدّم من قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾.

الآية (100)

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

ذُكِرَ في المراد من العهد وجهان، هما:

1. الميثاق الذي أخذه عليهم ليؤمنوا بالنبيّ الأمّيّ.
2. العهد الذي أعطوه لرسول الله ﷺ أنْ لا يعينوا عليه أحداً، فنقضوه، وأعانوا عليه قريشاً يوم الخندق. ولكنّ الآية فيها نوع من التعميم فـ ﴿كُلَّمَا﴾ تفيد صيرورة ذلك ديدناً وخُلُقاً فيهم.

والنبذ؛ بمعنى الطرح والإلقاء، وهو في العهد مخالفته ونقضه، فكأنّه تخلٍّ عنه وطرح له. وهو، وإنْ نسب إلى فريق منهم دون الجميع، لكنّ العهود التي تُنبَذ ليست بالضرورة أن تُنْبَذَ من قِبَل فريق واحد، فأكثر المعاهدين ينبذون العهود: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

الآية (101)

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

والمقصود بالرسول الذي جاءهم هو محمّد ﷺ. ويحتمل في الكتاب الذي نبذوه أنّه الكتاب النازل عليهم؛ لأنّهم بكفرهم بالرسول يكونون قد تخلّوا عن العمل بما جاءهم، وهو نبذ له. وجعله وراء ظهرهم؛ كناية عن الإعراض والإهمال العمليّ، وكأنّهم

لا يعلمون ما جاءهم فيه، وهو الأقوى. ويحتمل أن يكون المراد به القرآن الكريم؛ باعتبار أنّ فيه من الآيات البيّنات والدلالات الواضحات ما فيه الحجّة عليهم، ومع ذلك نبذوه، وكفروا به، وأعرضوا عنه.

الآية (102)

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾:

اختُلف في تفسير الآية اختلافاً شديداً لم يحصل في مثلها. ومن وجوه الاختلافات:

1. الاختلاف في مَن هم الذين ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾، هل هم يهود عصر سليمان، أم يهود عصر محمّد ﷺ، أم الجميع؟
2. الاختلاف في المراد من قوله ﴿تَتْلُواْ﴾، هل هو بمعنى القراءة، أم المتابعة للعمل، أم التكذيب؟
3. الاختلاف في مَن هم ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، هل هم شياطين الجنّ، أم شياطين الإنس، أم الجميع؟
4. الاختلاف في المقصود بـ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ﴾، هل هو في ملكه، أم في عهد ملكه، أم استعلاءٌ على ملكه؟

5. الاختلاف في المقصود بـ﴿كَفَرُواْ﴾، هل كفروا بإخراج السحر للناس، أم بما نسبوه إلى سليمان من السحر، أم بممارسته؟
6. الاختلاف في المقصود بـ﴿يُعَلِّمُونَ﴾، هل هو بإلقائه إليهم عمليّاً، أم بدلالتهم عليه، أم على مكان دفنه وكيفيّة استخراجه؟
7. الاختلاف في المقصود بـ﴿مَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، فهل ﴿مَآ﴾ موصولة والعطف على ﴿تَتْلُواْ﴾، أم ﴿مَآ﴾ موصولة والعطف على ﴿ٱلسِّحْرَ﴾، أم ﴿مَآ﴾ نافية؛ أي لم ينزل على المَلَكين من سحر؟
8. الاختلاف في المقصود من الإنزال؛ فهل هو من السماء، أم من نجود الأرض وأعاليها؟
9. الاختلاف في بابل؛ هل هي بابل العراق، أم بابل دماوند، أم غيرهما؟

واختلفوا في أمور كثيرة غيرها.

وتتعرّض الآية لشأن آخر من شؤون اليهود، وهو تعاطيهم السحر وتداوله بينهم. ولا شكّ في أنّ بذور معرفة السحر كانت من سحرة فرعون، حين كان ينتشر هذا الفنّ في مصر، وقد حمله السحرة الذين آمنوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ معهم.

وقد استند اليهود في تبرير عملهم إلى قصّة معروفة، فيها ذِكْر أمر مُلك سليمان والمَلَكين ببابل هاروت وماروت، فهم كانوا يتداولون السحر، ويزعمون أنّ سليمان ملَكَ المُلكَ بالسحر، وسخّر الجنّ والإنس والوحش والطير، وأتى بغرائب الأمور وخوارقها بالسحر، وينسبون إلى هاروت وماروت بعضاً من السحر.

ولعلّ ما هو المشهور في الأساطير والقصص الخياليّة وعلى ألسنة الناس؛ من قبيل خاتم سليمان، وكونه مفتاح الحلول وعظائم الأمور، وباب تسخير العفاريت من الجنّ، فأصله من اليهود ومن ثقافتهم.

وقد ردّ القرآن عليهم بأنّ سليمان لم يكن يتعاطى السحر، وأنّ ما جاء به المَلَكان هاروت وماروت لم يكن دعوة إلى عمل السحر، بل تحذيراً منه، فأراد امتحانهم واختبارهم، وتعليمهم سرّه لإبطاله والحيلولة دون الوقوع في تأثيره.

وعليه، فإنّ اليهود اتّبعوا ما تتلوا الشياطين؛ أي تفتريه على سليمان، وكيفيّة وصوله إلى المُلك، وتسخيره الجنّ. والشياطين هم شياطين الجنّ الذين كانوا معذَّبين في مُلك سليمان بعد أن سخّرهم ومنعهم من الإفساد، ولمّا تبيّن لهم موته انطلقوا. وهو يدلّ على أنّ السحر تعليم الشياطين للبشر.

ولكنّ الحقيقة أنّ سليمان لم يكفر في ممارسة السحر، ولم يملك ما ملك بالسحر، وإنّما هو مُلك أعطاه الله إيّاه، وهو رسول معصوم مسدّد لا يجوز عليه الكفر، والشياطين هم الذين كفروا بتعليمهم السحر للناس وافترائهم على سليمان.

واتّبع اليهود ما أُنزل على المَلَكين ببابل هاروت وماروت، مع أنّ المَلَكين لم يكونا يعلّمان أحداً حتّى يقولا إنّ ما يعلّمانه له هو فتنة وفيه خطورة، وأنّه يمكن أن يستعمل في موارد الخير والصلاح، ويمكن أن يستعمل لأغراض الشرّ والإفساد، فيتعلّم الناس منهما ما يفرِّق بين المرء وزوجه من السحر المحدِث لذلك الأثر.

وهذا السحر الذي يتعلّمونه ليس خارجاً عن التقدير الإلهيّ وإرادته في خلقه، بل هو نفسه من القدر، وتأثيره داخل دائرة الصنع الإلهيّ، لا يؤثّر إلّا بإذن الله.

الآية (103)

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۚ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾:

الضمير في ﴿أَنَّهُمْ﴾ يعود إلى اليهود الذين تقدَّم ذِكرهم: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ﴾، فقال بعد ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾؛ أي بما نبذوه واستعاضوا عنه باتّباع ما تتلو الشياطين، أو: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ برسول الله وبالقرآن الكريم النازل عليه.

﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾:

ربّهم فخافوه، وتركوا ما هم عليه، وفعلوا ما يدخلهم في رحمة الله ومغفرته.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۚ﴾:

جواب «لو»، فكأنّ المراد ولو أنّهم آمنوا واتّقوا لنالوا الخير الذي هو مثوبة؛ وهذا بديل اتّباع الشيطان الذي فيه: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾، فبين الآيتين مقابلة.

وفي الآية دلالة على أنّ الإيمان من دون عمل لا ينفع، حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾، ولو كان الإيمان دون عمل ينفع لقال: ولو أنّهم آمنوا لمثوبة.

﴿خَيۡرٞۚ﴾:

أي خير ممّا راموه من السحر.

﴿لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾:

هذا التعبير في هذه الآية وفي الآية السابقة، يدلّ على أنّهم جهلوا الحقائق ونتائج ترك التقوى واتّباع الشياطين، على الرغم من أنّهم علموا أنّه من اشتراه ما له من خلاقٍ في الآخرة، ولكنّهم لمّا لم يعملوا بما علموا عُدّوا بمنزلة مَنْ لم يعلم، وكأنّهم منسلخون عنه.

الآية (104)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

عود في هذه الآية إلى خطاب المؤمنين بالرسول ﷺ، لكنْ في مسألة لها علاقة بفعال أهل الكتاب (اليهود).

وقد ورد خطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في القرآن ثماني وثمانين مرّة، وهذه هي المرّة الأولى؛ وهو يجعل محور تشكّل المجتمع الاسلاميّ قائماً على الإيمان، وليس على انتماء آخر.

ولكن لماذا خاطب مجتمع المؤمنين بهذه الصيغة، مع أنّ خطاب السابقين جاء بلفظ قوم، وأصحاب، وبني...؟

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**يدخل في هذا المنافقون والضُّلّال، وكلّ من أقرّ بالدعوة الظاهرة**»[1].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص412.

فالمراد من هذه الصيغة من الخطاب، كلّ من صدر عنه إيمان، ولو لم يأتِ بمقتضياته بشكل ثابت ودائم ومستمرّ، بخلاف الوصف أو الصفة المشبّهة، أو اسم الفاعل، ففيها دلالة على الثبات.

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الذين آمنوا هم أشخاص بأعيانهم، وهم السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا في ساعة العسرة[1].

﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾:

النهي عن هذا القول، مع أنّه بمعنى انظرنا؛ لأنّ اليهود كانوا يسيؤون استعمال الكلمة، فهي كلمة سبّ باللغة العبرانيّة، وهم يقصدون معناها العبرانيّ. وأمّا المعنى العبرانيّ المقصود، فقيل فيه أشياء كثيرة، منها: أنّهم عنَوا بها فاعل الرعونة، أو أنّهم عنَوا راعينا؛ أي راعي غنمنا، أو أنّهم أرادوا: اسمع لا أسمعت، كما تحدّث القرآن الكريم عن قولهم هذا: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾[2].

وفي هذه الآية وما بعدها شروع في ذكر أفعال بني إسرائيل في عهد نبيّنا ﷺ بعد أن ذكر أفعالهم قبل بعثة نبيّنا ﷺ.

﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾:

أي أمهلنا وانظرنا حتّى نفهم ما تقول، أو نحفظ ما تتلو.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

لأنّ كفرهم كفر تمرّد وعصيان.

(1) انظر: العلاّمة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص246.
(2) سورة النساء، الآية 46.

الآية (105)

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

أهل الكتاب: اصطلاح قرآنيّ يُطلق على أهل الأديان السابقة الذين نزل على نبيّهم كتاب، وهم اليهود والنصارى. ومِن هؤلاء مَن آمن بالرسول ﷺ، ومنهم من كفر به.

﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾:

روي عن الإمام عليّ عليه السلام، وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّ المراد برحمته هنا النبوّة[1].

الآية (106)

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

النسخ معناه الإزالة، يقال: نسخت الشمس الظلّ؛ أي أزالته. والنسخ في الأحكام: إزالة حكم شرعيّ كان ثابتاً، وإحلال حكم آخر محلّه. ومن أمثلة النسخ في الأحكام:

1. الصلاة في بداية التشريع، حيث كانت القبلة باتّجاه بيت المقدس، واستمرّ النبيّ ﷺ والمسلمون يصلّون إلى القبلة الأولى بعد الهجرة 16 شهراً، ثمّ نزل الأمر بتغيير القبلة إلى المسجد الحرام والكعبة المشرّفة.

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص391.

2. عقوبة الزانية، وهي الحبس في البيوت: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[1]، وقد جاء السبيل في قوله -تعالى-: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فشرّعت إقامة الحدّ بمئة جلدة.

3. أوجب الله على المسلمين، بعد الهجرة وبعد تشريع الجهاد، أن يقاتلوا المشركين الذين يقاتلونهم، إذا كان في المؤمنين واحد مقابل عشرة من المشركين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[3]، ثمّ نسخ ذلك إلى واحد مقابل اثنين: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[4]، فنسخ الاثنان العشرة[5].

وقد يكون النسخ في التشريع بتغيير الشريعة، وذلك بإحلال شريعة أخرى على يد نبيّ آخر، كما نسخ عيسى عليه السلام بعض شريعة موسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾[6]،

(1) سورة النساء، الآية 15.
(2) سورة النور، الآية 2.
(3) سورة الأنفال، الآية 65.
(4) سورة الأنفال، الآية 66.
(5) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص393.
(6) سورة آل عمران، الآية 50.

وكما نسخ الإسلام ما قبله من الشرائع: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ النسخ يتناول الأحكام التي هي أوامر ونواهٍ تتعلّق بأفعال الإنسان، ولا يقع في الأصول العقديّة؛ لأنّها ثابتة لا تتغيّر تحكي عن حقيقة ثابتة، كالتوحيد، والصفات، والمبدأ، والمعاد.

وشكّل النسخ باباً من أبواب التشكيك والطعن، فاستغلّه اليهود لإثارة الشكوك في وجه الإسلام، وزلزلة مواقف بعض المؤمنين، وذلك بالاعتماد على أسلوبين:

1. عندما صلّى الرسول ﷺ ومن معه إلى القبلة الأولى قالوا: أنتم تتّبعون قبلتنا، فأنتم تابعون لنا آخذون منّا. وعندما تحوّلت القبلة، قالوا: إنْ كان فعلكم هذا هو الصحيح، فصلاتكم كلّها سابقاً كانت على غير الصواب، وإنْ كانت قبلتكم الأولى هي الصواب، فإنّ إعراضكم عنها خطأ وفعلكم باطل، وإذا كان الحكم السابق وَفق المصلحة، فالثاني خلاف المصلحة بلا شكّ، فكيف يصحّ التغيير؟!
2. إنّ شريعة موسى عليه السلام هي الأصل الثابت المتّفق عليه بين اليهود والمسلمين، والنسخ تغيير بالأحكام، وهو غير ثابت؛ ما يفرض التعبّد بشريعتهم.

وقد أجيب عن هذا الإشكال بأنّ المصالح والمفاسد على نحوين:

- مصالح ثابتة لا تتغيّر، ومفاسد ثابتة لا تتغيّر، كما لو كانت ذاتيّة. والأحكام القائمة على مثل هذه المصالح والمفاسد لا

(1) سورة المائدة، الآية 48.

تتغيّر، مثل: حرمة شرب المسكّرات، أو وجوب عبادة الله، أو حرمة الإشراك به.

- مصالح متغيّرة، ومفاسد متغيّرة، كالمصلحة الامتحانيّة، والمصلحة التأديبيّة. والمصالح المتغيّرة تتبدّل بتبدّل الظروف والاعتبارات الاجتماعيّة والعسكريّة والسياسيّة وغير ذلك. ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[1]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[2]، ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾[3].

وعليه، فإنّ النسخ في الأحكام لا ينشأ من الجهل واكتشاف الخطأ، فليس الهدف من النسخ هو إصلاح الخطأ، وإنّما هو تشريع وفق مصلحة مستجدّة عند انتفاء مصلحة أو مفسدة سابقة.

والآية المنسوخة إنّما يُنسخ حكمها؛ وتبقى جزءاً من القرآن وآيةً من آياته.

والمراد بالآية في قوله -تعالى-: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ لا يختصّ بالآية القرآنيّة، وإنّما هو أعمّ، فهو يشمل كلّ شيء يدلّ عليه -تعالى-. ولعلّ المقصود في المورد معاجز الأنبياء عليهم السلام التي كانوا يحتجّون بها على أقوالهم، كما في قوله -تعالى-: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ

(1) سورة النساء، الآية 160.
(2) سورة البقرة، الآية 143.
(3) سورة الأنفال، الآية 66.

بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾[1]، ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾[2].

وفي بعض الروايات تطبيق الآية على الأئمّة المعصومين عليهم السلام الذين هم حجّج الله، ونسخ الآية وفاة إمام وقيام إمام مقامه[3].

الآية (107)

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

توكّد هذه الآية على أمرين، هما:

- قدرة الله -تعالى- وحاكميّته المطلقة للسماوات والأرض، والتي تنبني على ملكيّته لها. وهنا، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الملك الحقيقيّ لا ينطبق على غير ملك الله -تعالى-؛ لأنّ كلّ ملك فهو محدود اعتباريّ مستمدّ من تمليك الله، أو إذنه، أو تمكينه، وهو قابل للزوال، ومقيّد باستمرار التمكين والإقدار، بينما ملك الباري -عزّ وجلّ- هيمنة تامّة وكاملة، وسلطان مطلق لا يُنازع ولا يُسلب، ولكنّ غفلة الإنسان عن هذه الحقيقة تجعله يتوهّم نفسه مالكاً ومهيمناً، فيطغى ويستكبر، حتّى تصدمه الحقيقة. وقد تعرّض القرآن الكريم لقصص من هذا القبيل، كما في حكايته عن قارون عندما رأى الكنوز بين يديه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[4]، وعن صاحب الجنّة: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ

(1) سورة طه، الآية 42.
(2) سورة النمل، الآية 12.
(3) انظر: العيّاشيّ، تفسير العيّاشيّ، مصدر سابق، ج1، ص56.
(4) سورة القصص، الآية 78.

أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾[1]، وعن فرعون: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾[2].

- ضعف الناس وعدم استغنائهم عن خالقهم وبارئهم، وهو ما عبّرت عنه الجملة الثانية من الآية: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

فقد ينظر الإنسان إلى ما عنده من الملك الموهوب والسلطان الممنوح، عندها سيعترف ويقرّ بأنّ قدرته ناقصة ومحدودة، والأمور لا تستجيب لإرادته ولمشيئته بشكل تامّ؛ أي أنّها لا تجري وَفق ما يهوى ويطلب ويرغب، فهو بحاجة إلى نصير يعينه على تحقيق مراده، وليس له دون الله نصير ينصره على ما يستعصي عليه، ويعينه على ما يعجز عنه.

وقد جاءت هذه الآية بعد ذيل الآية السابقة لتؤكّد على مفهوم القدرة، وأتبعته بتأكيد مفهوم الملك التامّ وعجز البشر وعدم استغنائهم عنه -تعالى-. وهذا إذا تمّ كان بمنزلة التعليل للنسخ الذي هو تصرّفٌ في الآيات، وتبديل وتغيير يتفرّع على القدرة والملك المطلقَين، فليس للإنسان أن يعترض على ذلك.

والخطاب في هذه الآية والآية السابقة، وإنْ كان للنبيّ ﷺ، ولكنّ المراد به كلّ فرد من أمّته؛ بقرينة الآية اللاحقة: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ﴾، وهو شبيه بقوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[3].

(1) سورة الكهف، الآية 35.
(2) سورة الزخرف، الآية 51.
(3) سورة الطلاق، الآية 1.

الآية (108)

﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾:

الخطاب في الآية للأمّة أو لمجموعة من أهلها من ضعاف الإيمان، أو للمشركين الذين يحاولون تعجيز النبيّ ﷺ بالطلبات.

وذُكِرَ في المراد من السؤال وجهان، هما:

- إنّه سؤال استفهاميّ أي علميّ. وهو ضعيف؛ لأنّه مجرّد السؤال العلميّ لا يُستنكر إلّا أن يكون تعنّتاً وتعجيزاً.
- الطلب إليه أن يأتيهم بالمحالات أو المعاجز المغايرة لما أتى به لمجرّد العبث والتعنّت.

فقد سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام، فقالوا -كما حكى القرآن الكريم-: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾[1]، ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾[2].

وهؤلاء -أيضاً- قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ...﴾[3]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ

(1) سورة الأعراف، الآية 138.
(2) سورة البقرة، الآية 55.
(3) سورة الإسراء، الآيات 90 - 93.

لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾[1].

والإعراض عن الحقّ بعد وضوحه، وعن الهدى بعد قيام حججه هو كفر وجحود.

وعلى الإنسان العاقل أن يذعن للحقّ، ويؤمن بالرسالة، فإذا أعرض عنها فقد استبدلها بالكفر، وهو ضلال عن سواء السبيل، وانحراف عن طريق الهدى المؤدّي إلى الرضوان والكمال.

الآية (109)

﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

المراد بأهل الكتاب -كما تقدّم- اليهود والنصارى. ولم تحدّد الآية المقصودين هنا، فقيل: إنّهم كعب بن الأشرف، أو حيي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب، وقيل: غيرهم[2].

وذِكْر بعض الأفراد لا ينفي انطباق الآية على غيرهم، وخاصّة أنّ لفظ «كثير» يوحي بالجماعة.

ولا شكّ في أنّ بعض أهل الكتاب لم يكونوا كذلك، بل آمنوا وصدّقوا، ولم يستكبروا.

(1) سورة الفرقان، الآية 21.
(2) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص405.

وفي الآية إشارة إلى ثلمة أخرى في نفوس اليهود، بأنّهم كفروا بما عرفوا من الحقّ، وعملوا على نشر الكفر والانحراف، وكرهوا دخول الناس في الإسلام، فسعوا لإضلالهم، ليكونوا سواء في الكفر، وهذه خصلة يشترك معهم فيها أهل النفاق، قال -تعالى-: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[1].

والحسد مذموم، وهو آفة من الآفات الخطيرة على الفرد والمجتمع الإنسانيّ، فمن يبتلى به يتمنّى زوال النعمة عن غيره إذا رآها عليه، وهو على مراتب:

1 - حسود فاقد للنعمة يتمنّى زوالها عن غيره ليصير مساوياً له.
2 - حسود فاقد للنعمة يتمنّى زوالها عن غيره وتحوّلها إليه.
3 - حسود فاقد للنعمة يتمنّى زوالها عن غيره ليتفرّد بها دونه.

أمّا الذي يرى النعمة على غيره، فيتمنّى لنفسه مثلها، فلا يصدق عليه الحسد، بل الغبطة، ولا بأس بها، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**قال لقمان لابنه: وللحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، ويتملّق إذا شهد، ويشمت بالمصيبة...**»[2].

لماذا ينعكس الحسد على الحاسد نفسه بهذا الشكل؟ وكيف يؤثّر الحسد على المحسود؟

ويكمن الجواب في أنّ الحاسد يمتلك نفساً مريضة، ويفكّر بطريقة غير سليمة؛ حيث إنّه يصرف همّه وتفكيره وحواسّه في إطار من الحقد والشعور بالنقمة تجاه أهل النعمة، فيمنعه ذلك

(1) سورة النساء، الآية 89.
(2) الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ص121.

من بناء علاقة سليمة، والانصراف إلى العمل بالطرق السليمة، فتخبث نفسه، ويتأذّى بحسده قبل غيره، ففي الروايات المأثورة: «**لا راحة لحسود**»[1]، «**ولا لحسود لذّة**»[2]، «**لله درّ الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله**»[3]، «**ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد**»[4]، «**الحسد لا يجلب إلاّ مضرّة وغيظاً، يوهن قلبك، ويمرض جسدك**»[5].

وأمّا تأثيره على غيره؛ فلأنّ الحاسد يترجم شعوره ممارسةً وسلوكاً يضرّ بغيره بشكل أو بآخر.

ولعلّ أبشع آثار الحسد أنّه يؤدّي بصاحبه إلى الكفر، فإذا ارتبط بأمور ترتبط بالعقيدة، فإنّ إبليس (عليه اللعنة) استكبر وامتنع من السجود لآدم عليه السلام عندما أُمِر بذلك بفعل الحسد، حيث دفعه حسده لآدم عليه السلام إلى الامتناع من السجود، وأدّى به الإصرار على ذلك إلى الكفر والعصيان. وفي الروايات المأثورة: «**إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب**»[6]، «**إيّاكم أن يحسد بعضكم بعضاً، فإنّ الكفر أصله الحسد**»[7].

---

(1) الليثيّ الواسطيّ، عليّ بن محمّد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسينيّ البيرجنديّ، دار الحديث، إيران - قم، 1418هـ، ط1، ص531.
(2) الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ص271.
(3) ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، نشر مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ، إيران - قم، 1404هـ، ودار إحياء الكتب العربيّة - عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، 1378هـ - 1959م، ط1، ج1، ص316.
(4) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول، مصدر سابق، ص216.
(5) العلاّمة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج70، ص256.
(6) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص306.
(7) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول، مصدر سابق، ص315.

والآية الشريفة التي نحن بصددها تشير إلى ذلك: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، فهم يعرفون الحقّ، لكنّهم لم يؤمنوا به، بل جحدوا به، ويعرفون أنّكم على الحقّ، ولكنّهم يحسدونكم على سَبقكم إليه وإيمانكم به، فيتمنّون أن تكفروا، بل يودّون أن يقوموا هم بردّكم إلى الكفر حسداً.

وفي الآية دعوة للمؤمنين إلى التحلّي في المقابل بالخلق الكريم، وعدم مقابلة لؤمهم باللؤم، ولا حسدهم بالحسد، بل تأمرهم بالعفو والصفح، وترك أمرهم لله -تعالى- الذي سيحاسبهم ويعاقبهم: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هل نسخت هذه الآية بآيات الجهاد؟

النسخ في الاصطلاح هو إنهاء حكم ثابت. والصفح والعفو -في الآية المتقدّمة- مغيّىً بإتيان الله بأمره. ولعلّ الجهاد الذي أمر الله -تعالى- به بعد ذلك عند نزول آياته هو الأمر الذي تحدّث عنه هنا. ومن شروط النسخ الاصطلاحيّ أن لا يكون الحكم مؤقّتاً بحسب دليله.

نعم، قد يطلق النسخ بمعناه اللغويّ على مثل هذه الآية.

الآية (110)

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾:

ما هو وجه الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، بعد الحديث عن عداوة اليهود لهم، وسعيهم لإخراج المؤمنين من الإسلام، وإرجاعهم إلى الكفر؟

يكمن الجواب في أنّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثبات على الدين، وهو -في حدّ ذاته- إفشال لليهود في مسعاهم، وإسقاط لرغباتهم، كما أنّه يمثّل المعين لهم على المواجهة والتحصين لساحتهم، وهو ما عبّرت عنه آيات أخرى، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾[1]، ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

لكن، كيف تكون الصلاة والزكاة معيناً ومحصّناً للمؤمنين؟

الإنسان ضعيف، تتجاذبه الأهواء والغرائز، ويتربّص به الشيطان، ويعترضه كثير من عوامل الضلال ووسائل الإسقاط وكثير من العقبات في طريق التكامل والصعود نحو عالم الطهارة والصفاء. والذي يحميه من ذلك كلّه أمران:

1 - توثيق العلاقة بالله -تعالى- والتمسّك بعروته وبالعبادات كلّها، وعلى رأسها الصلاة، تحقّق له ذلك.

(1) سورة البقرة، الآية 45.
(2) السورة نفسها، الآية 153.

2 - الحدّ من العلاقة بالدنيا باعتبارها دار ممرّ، لا دار مقرّ، وحياتنا فيها حياة مسافر، يتزوّد منها ما يحتاج إليه في سفره فقط، وما يعنيه للوصول إلى مقصده، وهو ما تسعى الزكاة لتربية الأمّة عليه؛ لأنّ المال عنوان العلاقة بالدنيا، وبذله في سبيل الله تعبير عن استعداد المؤمن للتضحية بالدنيا من أجل الآخرة، وتقديم طاعة الله على حبّ الدنيا.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾:

المعنى المتداول في التفاسير الظاهريّة للآية هو: أنّ ما تقدّمونه لأنفسكم من خير، وهو الطاعات والعمل الصالح، فإنكم ستجدونه؛ أي تجدون ثوابه وأجره وجزاءه عند الله.

وبناءً عليه، يكون ما يجدونه غير ما قدّموا، حيث يجدون ثوابه وأجره وجزاءه، بينما ذكرت الآية أنّ ما يقدّمه الإنسان يجده هو نفسه؛ ما يفترض الحكم بالمجاز في الإسناد، أو إقامة الجزاء مقام الفعل.

لكنّنا نجد القرآن الكريم يكرّر ذلك في مواضع عدّة، بما يفترض وحدة العمل المقدَّم والنتيجة التي يجدها العامل، كما في قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًاۗ﴾[1]، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن

(1) سورة آل عمران، الآية 30.
(2) سورة الكهف، الآية 49.

يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[1]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[3]، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[4].

وقبل حمل هذه الآيات كلّها على إرادة المجاز في التعبير، لا بدّ لنا من دراسة العلاقة بين العمل وبين الجزاء الأخرويّ، فإنّ الارتباط بينهما يمكن أن يصدر على ثلاثة أنحاء، هي:

1 - ارتباط العمل بالجزاء المنفصل، مثل العقوبات الدنيويّة التي تلحق المذنب، كالحدّ الذي يقام على شارب الخمر أو الزاني، أو المكافآت التي تلحق المحسن؛ كالهدايا والتحفيزات المادّيّة والمعنويّة.

2 - ارتباط العلّة بالمعلول والسبب بالمسبَّب؛ كارتباط الموت بشرب السمّ، أو ما يترتّب من نتائج جسديّة ونفسيّة واجتماعيّة على شرب الخمر أو الزنا.

3 - الارتباط التكوينيّ، أو ارتباط الاتّحاد والعينيّة؛ بمعنى أنّ العمل هو عينه الجزاء، وذلك بناءً على تجسّم الأعمال يوم القيامة.

والآيات السابقة تنسجم مع تجسّم الأعمال واتّحاد العمل والجزاء، بل إنّ ثمّة روايات مستفيضة تصبّ في هذا الاتّجاه، منها:

(1) سورة الزلزلة، الآيات 6-8.
(2) سورة البقرة، الآية 281.
(3) سورة النساء، الآية 10.
(4) سورة النجم، الآيات 39-41.

«إنّما هي أعمالكم تردّ إليكم»[1]، «الجنّة قيعان، وإنّ غراسها سبحان الله وبحمده»[2].

لكن كيف تتجسّد الأعمال؟!

يبدو أنّ للأعمال وجهين؛ وجه ظاهريّ يظهر لنا في الدنيا بشكل قول يصدر عن لسان في ذبذبات صوتيّة تعبّر عن مقصود، أو فعل يصدر عن جوارح له آثاره المباشرة أو غير المباشرة، ووجه حقيقيّ غيبيّ؛ وهذا الوجه الغيبيّ هو الذي يبقى ويلاقيه الفاعل يوم القيامة، وهو الذي يقدّمه العامل ويُبعث به من عالمنا الدنيويّ: «الدنيا مزرعة الآخرة»[3].

ولا يجد الإنسان يوم القيامة إلّا الأعمال نفسها التي قدّمها: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[4]، لكنْ بوجودها الحقيقيّ، وبذلك الوجه الغيبيّ الذي صار حاضراً وشاهداً يوم القيامة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[5].

(1) الجعفيّ، المفضّل بن عمر، التوحيد، تعليق: كاظم المظفّر، مؤسّسة الوفاء، بيروت، 1404هـ ق/ 1984م، ط2، ص50.
(2) ابن أبي جمهور الأحسائيّ، محمّد بن عليّ، عوالي اللئالي، تقديم: السيّد شهاب الدين النجفيّ المرعشيّ، تحقيق: الحاج آقا مجتبى العراقيّ، لا.ن، لا.م، 1403هـ - 1983م، ط1، ج4، ص8.
(3) البيهقيّ، عليّ بن زيد البيهقيّ، معارج نهج البلاغة، تحقيق: محمّد تقيّ دانش پژوه، قم المقدّسة، مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، 1409هـ، ط1، ص155.
(4) سورة الحشر، الآية 18.
(5) سورة ق، الآية 22.

وتشير الآية -أيضاً- إلى أنّ عامل الخير إنّما يعمل لنفسه: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾، وإنْ كان بحسب الوجه الظاهريّ للعمل الدنيويّ هو خير للغير، لكنّه بحسب صورته الأخرويّة هو عمله الذي يرتبط به، ويجده حاضراً بهذه الصفة.

كما أنّ من يقدّم لنفسه عملاً سيّئاً يجده يوم القيامة حاضراً. ولكنّ الآية أغفلت هذا الطرف المقابل، وذكرت الخير فقط، وذلك من باب التفاؤل، ولأنّ العاقل لا بدّ له من أن يختار الخير.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

فإنّ الله -تعالى- لا تخفى عليه خافية، فإذا فعل الإنسان الخير سرّاً، فهو بصير به؛ وإذا فعله علناً، وأنكره الناس عليه، وقلبوا المفاهيم، وشوّهوا الصورة، واتّهموه بغير ما فعل، أو نسبوا إليه ما لم يفعل، فلن يغيّروا من الواقع شيئاً عند الله؛ لذا لا ينبغي للإنسان أن يقصد بعمله غير وجه الله، ولا يبحث عن رضى غير الله؛ فإنّ رضاهم وسخطهم واحد سيّان، لا يبدّل من الحقيقة شيئاً.

وفي المقابل، لا يتخيّلنّ أحد ممّن يدفعه هواه إلى ارتكاب المعاصي سرّاً وبعيداً عن أعين الناس أنّه يفلت من العقاب، فهو -تعالى- بصير بما يعمل، وعمله هذا يحشر معه، فيجده أمامه يوم القيامة نصب عينيه، فيجزى به.

الآية (111)

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

من المعروف أنّ اليهود لا يقرّون للنصارى، وكذلك النصارى لا يقرّون لليهود بدخول الجنّة، وسيأتي في الآية اللاحقة ما يدلّ على ذلك: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾. والقائل هو مجموع اليهود والنصارى، لكنْ على تفصيل، فاليهود يقولون لن يدخل الجنّة إلّا مَنْ كان هوداً، والنصارى يقولون لن يدخل الجنّة إلّا مَنْ كان نصارى، فكلّ يزعم أنّ الجنّة له دون سواه.

والهود: جمع هائد، ومعناه تائب راجع إلى الحقّ. ونصارى: جمع نصران أو نصرانيّ، نسبة إلى بلدة الناصرة. وفي الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه سمّي النصارى بهذا الاسم: «**لأنّهم كانوا من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام، نزلتها مريم عليها السلام ونزلها عيسى عليه السلام بعد رجوعهما من مصر**»[1].

ومن المعروف أنّ اليهود كانوا يزعمون أنّ لهم الحظوة والمكانة، وأنّهم من خواصّ الله الذي منحهم التفوّق في الدنيا، والقرب في الجنّة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾[2]، ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾[3]، ﴿وَقَالُواْ لَن

(1) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، مصدر سابق، ج1، ص81.
(2) سورة المائدة، الآية 18.
(3) سورة البقرة، الآية 111.

﴿تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[1]، ﴿قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾[2]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[3].

وقد انعكس ذلك في نظرة اليهود إلى باقي الناس، حيث زعموا أنّهم شعب الله المختار، وباقي الناس خلقوا لخدمتهم؛ فليس عليهم تجاههم أيّ حقّ. وهذه عقيدة عنصريّة لا تقوم على أساس العمل الصالح؛ بوصفه منشأ وسبباً للفوز، وإنّما على الانتماء العرقيّ والعنصريّ، وهكذا فهم يحتكرون الجنّة، ولكنْ حصروا الأمر في رجال الكنيسة الذين يمنحون صكوك الغفران، ويبيعون قيعان الجنّة لأصحابهم الذين يعترفون أو يتبرّعون للكنيسة.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾:

إشارة إلى ما تقدّم من مزاعم. والأمانيّ فيها وجهان:

1 - إنّها أمنيّات؛ أي تمنّيات، وهي جميع ما يرغب الإنسان فيه ويستبعد حصوله. وفيه ما يتضمّن الحكم بأنّهم لن يتحقّق ذلك لهم، ربّما بدخولهم الجنّة، وربّما بانحصار الدخول فيها؛ أي احتكارها لهم.

2 - إنّها الأقوال التي تُمنى؛ أي تتلى، فيمنونها بلا حجّة ولا دليل، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[4]؛ أي تلاوة دون معرفة المعنى.

(1) سورة البقرة، الآية 80.
(2) سورة آل عمران، الآية 24.
(3) السورة نفسها، الآية 75.
(4) سورة البقرة، الآية 78.

وتفيد العبارة -على كلا الوجهين- النفي القاطع لما قالوه، وأنّه لا يتجاوز التمنّيات، أو الأقوال المجرّدة عن الحجّة والدليل، فتكون بلا قيمة.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

فيه توجيه للمسلمين لاعتماد الدليل والحجّة والبرهان، وعدم قبول شيء من الدعاوى التي يطلقها مَن يطلقها، إلّا إذا كانت مدعَّمة بالدليل المناسب والمقنع؛ فالصادق عليه أن يبيّن مستند دعواه، ويأتي بالبرهان المثبت لصدقه.

وفي هذا المقطع تحدٍّ لليهود والنصارى بأنْ يأتوا بالبرهان على احتكار الجنّة.

الآية (112)

﴿بَلَىٰٓ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

تبيّن هذه الآية القانون أو القاعدة الصحيحة في دخول الجنّة، وهي تعتمد على عنصرين:

1 - التسليم لله؛ أي الإيمان والتوجّه إليه -تعالى- قلباً وقالباً.

2 - الإحسان؛ أي فعل الخير.

وهذا يدلّ على أنّ الإيمان من دون عمل لا يكفي، والعمل من دون إيمان لا ينفع؛ ولذا قرن عمل الصالحات مع الإيمان في 58 موضعاً من القرآن الكريم. والآية في سياق جوابهم تدلّ على عدم احتكار الجنّة لهم.

وقد يتبادر سؤال؛ مفاده: هل يمكن بعد مجيء الإسلام أن يسلم يهوديّ أو نصرانيّ وجهه لله ويعمل عملاً صالحاً، فتنطبق عليه الآية، ويقبل منه ذلك؟

والجواب: إنّ مقتضى التسليم لأمر الله والإيمان الصادق به هو الرضى بما جاء به الأنبياء عليهم السلام كلّه عنه -تعالى-؛ وعليه، فإذا أسلم وجهه على زمان موسى عليه السلام عمل بما جاء به موسى عليه السلام، ومنه الإخبار بنبوّة عيسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا جاء عيسى عليه السلام وجب القبول به، وهكذا عند بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وأمّا التعصّب لدين بعد نسخه بالدين اللاحق، فهو مناف للتسليم، وبالتالي يفقد العمل به صفة الإحسان.

الآية (113)

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾:

قيل: نزلت الآية عندما قَدِم قوم من أهل نجران من النصارى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتتهم أحبار اليهود في المدينة، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكفّر بعضهم بعضاً[1].

وفي التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام أنّ جماعة من النصارى وجماعة من اليهود اختلفوا، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقضي بينهم، وزعم كلّ من الطرفين أنّه الحقّ، وأنّ

(1) انظر: الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص352.

الطرف الآخر ليس على شيء، فأجابهم الرسول ﷺ بأنّهم جميعاً قد كفروا بترك العمل بما في التوراة والإنجيل وبتكفير بعضهم[1].

﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾:

نفي لإصابة شيء من الحقّ، وهي صيغة مبالغة تنفي ما لدى الطرف الآخر كلّه جملة وتفصيلاً. ونظير ذلك قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2].

وهذا التعبير فيه إنكار لأيّ قيمة لما يلتزمون به من ديانة ومعتقد، وهو ناشئ من العصبيّة والعناد، وإلّا فإنّ الحقّ واحد لا يتعدّد، وصاحب الحقّ عليه أن يثبته بالبرهان والدليل، وليس بالدعوى الجزافيّة، فالباحث عن الحقّ يمتلك -عادة- استعداداً للاستماع وقبول الآخر ولا يتعصّب.

وما جعل هذه الدعاوى أشنع أنّها صدرت على خلاف ما في أيديهم من كتب يتلونها، فيمكن أن يكون المراد بالكتاب الجنس المنطبق على التوراة والإنجيل والفرقان، وليس بين الكتب النازلة تناقض، وليس فيها ما ينفي الآخر، حتّى ما نسخ من أحكام فهو ليس نفياً ولا معارضة، وإنّما هو تغيير يأتي بعد الإقرار به في ظرفه الزمانيّ؛ ولذا، نجد أنّ كلّ رسول وكلّ كتاب يصدّق الذي قبله، ويبشّر بالذي بعده، فهي سلسلة مترابطة متكاملة يتمّم اللاحق منها السابق.

(1) انظر: التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، مصدر سابق، ح325، ص 544 - 545.

(2) سورة المائدة، الآية 68.

فالنفي المطلق للآخر، يعني مخالفة الكتاب الموجود بين أيديهم.

وربّما كان المراد من الكتاب في الآية هو خصوص القرآن، وقد كان رسول الله ﷺ يتلوه عليهم ليؤمنوا به، وفيه بيان للحقّ، ونور يضيء الطريق، ويرشد المتحيّر.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾:

أصل التعصّب هو الجهل، ولذلك يشترك الجاهلون كلّهم، إلى أيّ فريق انتموا، في هذه الخصلة، فالذين لا يعلمون من مشركي العرب قالوا في مواجهة الحقّ ما قاله اليهود أنفسهم في النصارى، وما قاله النصارى أنفسهم في اليهود، وما قاله اليهود والنصارى أنفسهم في الإسلام، فملّة الكفر واحدة، وأستاذهم واحد، وهم في انحرافهم عن الحقّ ومواجهتهم لأهل الحقّ فريق واحد ونهج واحد.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾:

تذكر الآية مصير هؤلاء ونهايتهم، فإذا كانوا في الدنيا يتصوّرون أنّهم بإنكارهم وجحودهم وتعصّبهم يواجهون الحقّ، وقد يمتلكون من وسائل المواجهة والقوّة والقدرة ما يجعلهم يتجرّأون عليه ويحاصرونه، ولكنّهم صائرون بلا شكّ إلى يوم يقفون فيه للمحاكمة، والحاكم هناك لا رادّ لحكمه، والقدرة يومئذ لله، والحساب بيده.

وهذا من شأنه تثبيت قلوب أهل الحقّ، وطمأنة نفوسهم، وتشجيعهم على الصبر والتحمّل، والابتعاد عن اليأس والقنوط.

أضف إلى ذلك، أنّ هؤلاء في إنكارهم لملّة الإسلام لن يضرّوكم، حيث ينكر بعضهم بعضاً، ويتواجهون فيما بينهم بما يواجهون به أهل الحقّ.

الآية (114)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

ظاهر السياق أنّ المقصود هم كفّار مكّة قبل الهجرة؛ فإنّ هذه الآيات نزلت في أوائل الهجرة المباركة للرسول ﷺ، وكانوا قد منعوا المسلمين من عبادة ربّهم في المسجد الحرام، وبالغوا في إلحاق الأذى بهم، حتّى دفعهم ذلك إلى الهجرة. وقيل: المراد بيت المقدس، وتخريب النصارى له، أو تخريب نبوخذ نصّر له، وهو بعيد جدّاً؛ لأنّ النصارى يعظّمون بيت المقدس. وقيل: جميع الأرض، لقول النبيّ ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً**»[1].

وروي عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام أنّهم قريش، حيث منعوا رسول الله ﷺ من دخول مكّة والمسجد الحرام[2].

والاستفهام في الآية للتقرير، فالمراد إثبات عظيم ظلم هؤلاء. والوجه فيه، أنّ ذلك أقبح من الكفر، فالكافر يجحد بالرسول وبالرسالة، وأمّا هذا، فيضيف إلى كفره وجحوده منعاً لذِكر الله ممّن آمن به. وهذا تعدٍّ آخر وتجاوز للحدود، فإنّ عدم الإيمان لا يفترض أن يدفع الإنسان إلى منع غيره من الإيمان وإلى فرض رأيه وعقيدته عليه، وخاصّة أنّ رؤيته غير مستندة إلى حجّة.

(1) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص285.
(2) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص355.

﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾:

هي الأماكن المخصّصة للصلاة والعبادة، أُخذت من السجود المعروف الذي يكنّى به عن الصلاة لتضمّنها إيّاه. وقد أطلقت في الإسلام على الدُور المخصّصة لإقامة الصلاة والجماعات، وأهمّها وأشرفها وأرفعها منزلة المسجد الحرام، ثمّ مسجد الرسول ﷺ، ثمّ غيرهما من المساجد، وإنْ كان بالإمكان التوسّع لجعل كامل الأرض مسجداً، كما في حديث الرسول ﷺ المتقدّم، ولكنّ المراد أنّها مكان للسجود، وترابها للطهارة؛ أي التيمّم؛ ولذا استُدلّ بهذا النصّ على جواز السجود على الأرض.

وأمّا نسبتها إلى الله -تعالى-، فباعتبار أنّها خصّصت لعبادته، أو أُوقفت فحرّرت من ملك البشر، وإنْ كانت في الحقيقة هي ملك الله -تعالى- قبل أن تُوقف وبعد أنْ أُوقفت، والأوّل أَوْلى.

﴿يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾:

ذكر اسم الله -تعالى-، عنوان يشمل كلّ عبادة لله. ولا شكّ في أنّ المنع بالمطلق مستنكر، ولكنّ منع ذِكر اسم الله -تعالى- في مساجده أشدّ ظلماً وقبحاً.

﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾:

السعي في خراب المساجد له صور:

1 - الإقدام على هدمها، وإلغاء صلاحيّتها لإقامة الصلاة فيها، ولو بتحويل وظيفتها.

2 - منع الناس من الصلاة فيها، وهو تخريب للدور المنوط فيها، ويقابله العمران، وعمران المساجد يتحقّق بالصلاة فيها: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[1]؛ ومنه العمرة التي هي عمران البيت الحرام بالطواف على مدى أيّام السنة.

ويحتلّ المسجد في الإسلام مكانة خاصّة، وله دور مهمّ في تربية الأمّة وتثقيفها وتعبئتها، وهو من بيوت الله -تعالى-؛ لأنّه يُعظَّم فيها ويُعبد، وإلّا فالأرض كلّها لله -تعالى-.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**عليكم بإتيان المساجد؛ فإنّها بيوت الله في الأرض، ومن أتاها متطهّراً، طهّره الله من ذنوبه، وكتب من زوّاره، فأكثروا فيها من الصلاة والدعاء**»[2].

وللصلاة في المسجد فضل مضاعف عن الصلاة في غيره، فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا أبا ذرّ، صلاة في مسجدي هذا تعدل مئة ألف صلاة في غيره من المساجد، إلّا المسجد الحرام، صلاة في المسجد الحرام تعدل مئة ألف صلاة في غيره، وأفضل من هذا كلّه صلاة يصلّيها الرجل في بيته، حيث لا يراه إلّا الله -عزّوجلّ- يطلب به وجه الله**»[3].

ومن المساجد المهمّة بعد المسجد الحرام ومسجد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ مسجد الكوفة، والمسجد الأقصى، ومسجد قبا، ومسجد صعصعة، ومسجد السهلة، والمساجد التي صلّى فيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة.

(1) سورة التوبة، الآية 18.
(2) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص440.
(3) المصدر نفسه، ص528.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾:

الصدّ عن سبيل الله، ومنع ذِكر الله في مساجده فيه نوع من التحدّي والتجرّؤ على الله -تعالى-، وهو القادر الذي لا يعجزه شيء، فهم لن يتمكّنوا من إطفاء نور الله، ولن تعود عليهم المواجهة مع العليّ القدير بغير الخوف والذلّ والخزي والمهانة، وينتظرهم عذاب عظيم يوم القيامة.

الآية (115)

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾:

اختلفت أقوال المفسّرين في مناسبة نزول هذه الآية على وجوه[1]، هي:

1. إنّها ترتبط بتغيير القبلة، وبجواب اليهود الذين أنكروا على المسلمين هذا التغيير، فأنزل الله الآية مفسّراً إيّاها: يعني إذا توجّهتم بأمره، فثمّ الوجه الذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه.
2. نزلت في صلاة التطوّع على الراحلة تصلّيها حيثما توجّهت إذا كنت في سفر.
3. نزلت في حكم قومٍ جَنّ عليهم الليل، فلم يهتدوا إلى القبلة، فصلّى كلّ منهم إلى جهة، ثمّ أصبحوا وتبيّن لهم أنّهم لم يستقبلوا القبلة، فسألوا النبيّ ﷺ، فنزلت الآية.

(1) انظر: الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص358.

وقد وردت روايات تطبّقها على الحجج المعصومين عليهم السلام، وعلى الإمام علي عليه السلام بالخصوص؛ باعتبار أنّهم عليهم السلام وجه لله الذي منه يؤتى[1].

ووجه ارتباط هذه الآية بالآية السابقة، أنّ السابقة تحدّثت عن منع الظالمين لذِكْر الله -تعالى- في المساجد، وهذه الآية تكمل بأنّ ذلك المنع لن يقطع الطريق أمام عبادة الله -تعالى، ولن يحول دون طاعة الله، عندما يعزم المؤمن على ذلك، فشرق الأرض وغربها لله -تعالى-، ولن ينقطع وجه الله -تعالى- بمنع الظالمين لبعض الجهات أو لبعض الأماكن. وهذا لا يعني أبداً التخلّي عن تطهير الأرض من الظالمين ومجاهدتهم لقطع دابرهم.

والشرق والغرب ليسا مكانَين محدَّدين، بل نسبيَّين، وهما وجهتان تنسبان إلى كلّ قائم في مكان؛ ولذلك فهما يشملان بقاع الأرض كلّها؛ لأنّ كلّ بقعة هي شرق أو غرب بالنسبة إلى غيرها؛ ولذا جاز جمعها في قوله -تعالى-: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾[2].

وأمّا التثنية، فقد وردت في قوله -تعالى-: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[3]، وقوله -تعالى-: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[4]، بينما عبّر برب المشارق في مواضع أخرى[5].

(1) انظر: الحويزيّ، عبد عليّ بن جمعة، نور الثقلين، تصحيح وتعليق: هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، مؤسّسة إسماعيليان، قمّ المقدّسة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ط4، ج1، ص118.
(2) سورة الأعراف، الآية 137.
(3) سورة الزخرف، الآية 38.
(4) سورة الرحمن، الآية 17.
(5) سورة الصافات، الآية 5؛ وسورة المعارج، الآية 40.

وذُكِر في التثنية وجوه، هي:

1 - ما ينسب إلى الشمس والقمر؛ أي مشرق الشمس، ومشرق القمر، وكذلك مغربهما.

2 - ما ينسب إلى المدار الأقصى والأدنى (قوس الصعود، وقوس النزول).

3 - من باب التغليب وإطلاق المشرقَين على المشرق والمغرب في قوله -تعالى-: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾[1].

4 - ما يحصل من تصوّر انقسام الأرض إلى شقّين؛ لكلّ منهما مشرق ومغرب.

إذا كان وجه الله -تعالى- في كلّ جهة وفي كلّ مكان، فلماذا -إذاً- وجب التوجّه نحو القبلة في الصلاة المفروضة؟

والجواب: أنّ البحث تارةً عن مكان الصلاة وبقيّة الطاعات، وأخرى عن الجهة التي يتوجّه إليها الإنسان في صلاته. أمّا المكان فكلّ بقعة في الأرض تصلح للصلاة، فأينما صلّى، فقد أدّى فرضه، وإنْ كانت البقاع تتفاوت بالفضل والأهمّيّة. وأمّا الجهة، فإنّ التوجّه نحو القبلة (سواء أكانت الأولى أم الثانية)، ليس بانحصار وجود الله -تعالى- في تلك الجهة أو في مكان محدّد، فهو محال على الله -تعالى-، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «... **ومَنْ أَشَارَ إِلَيْه فَقَدْ حَدَّه، ومَنْ حَدَّه فَقَدْ عَدَّه، ومَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَه، ومَنْ قَالَ عَلَامَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْه**»[2].

(1) سورة الزخرف، الآية 38.

(2) الرضيّ، السيّد أبو الحسن محمّد الرضيّ بن الحسن الموسويّ، نهج البلاغة (خطب الإمام عليّ عليه السلام)، تحقيق وتصحيح: صبحي الصالح، لا.ن، لبنان - بيروت، 1387هـ - 1967م، ط1، الخطبة1، ص15-16.

لكن لماذا القبلة؟!

ثمّة أسباب عدّة، أوّلها: توحيد الجهة بين المصلّين؛ باعتبار أنّ الصلاة لا بدّ من أن تكون في اتّجاه ما، وثانيها: رمزيّة المكان الذي يتوجّه إليه باعتباره منطلق التوحيد وقاعدته، وبيت العبادة الذي ينسب إليه -تعالى- والذي له حرمته.

وصحيح أنّ التوجّه القلبيّ هو الأصل وهو الغاية، أمّا الأوضاع المادّيّة والحركات الجسديّة التي أُمِر بها الإنسان تمثّل تعبيراً عن الحالة القلبيّة، وتجسيداً لها، كما في السجود والركوع والطواف وغيرها، ومن ذلك الاتّجاه، فجعل الله -تعالى- لعباده الكعبة لتكون محور طوافهم ونقطة اتّجاههم في صلاتهم أينما كانوا، وليحترّزوا بذلك عن التوجّه نحو ما يتوجّه إليه غيرُهم من المعبودات الزائفة.

ما المراد بوجه الله -تعالى-؟

ليس المراد الوجه المتعارف الذي يستحيل نسبته إليه -تعالى-؛ لأنّه يفترض الحدود، ويؤدّي إلى التعدّد، بل المراد كلّ جهة تربط الإنسان به -تعالى-، فإذا اتّجه الإنسان إليها يجد ربّه؛ لأنّ من عادة الإنسان أنّه إذا أراد إظهار التعظيم لأحد أو أراد أن يطلب منه شيئاً أو يخاطبه أن يولّي وجهه وجه ذلك المخاطب، ولمّا كان -تعالى- يختلف عن سائر المخلوقات، بأنّه لا يحدّه مكان، ويستحيل عليه التجسّم، فهو لا وجه له بالمعنى المتعارف، فكان وجهه الذي منه

يؤتى وإليه يقصد هو الطريق الذي يؤدّي إلى طاعته، فصحّ تطبيقه على الأئمّة عليهم السلام، وعلى الأنبياء عليهم السلام، وعلى بيوت الطاعة والعبادة، وعلى رأسها البيت الحرام.

لكنّ البسطاء من الناس الذين اعتادوا على المادّيّات قد يتوهّمون أنّه -تعالى- في جهة معيّنة؛ كأنْ يكون في السماء مثلاً، وهذا ناشئ من غفلة وجهل، وهو لا يوصلهم إلى الشرك، بخلاف العارف بذلك.

وقيل: إنّ وجه الله -تعالى- هي أسماؤه الحسنى وصفاته العليا التي بها يتوجّه إليه المتوجّهون، ويدعوه بها الداعون، ويعبده العابدون، وإنّما يقصده القاصدون، ويريده المريدون؛ لأنّه ربٌّ عليٌّ عظيم ذو رحمة ورضوان[1].

وقوله -تعالى-: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[2]؛ أي كلّ شيء هالك إلّا من أخذ طريق الحقّ، وهو ينسجم مع ما قدّمنا؛ لأنّ السائر على طريق الهدى المتمسّك بدين الحقّ الذي يقصده -تعالى- في كلّ أمر ينجو من الهلاك والضلال يوم القيامة، بل يحقّق لنفسه الحياة الحقيقيّة التي يصلح أن يُقال عنها إنّها وجود وإنّها حياة، على خلاف ما عداها.

(1) انظر: السيّد الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص259.
(2) سورة القصص، الآية 88.

الآية (116)

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾:

مرجع الضمير في هذه الآية إلى اليهود والنصارى؛ بقرينة سياق الآيات السابقة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، ولأنّهم نسبوا إليه -تعالى- هذه البدعة: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[1].

ولا دلالة للآية على خصوص دعوى الولادة؛ لأنّ اتّخاذ الولد أعمّ من أن يكون بالولادة أو بالتبنّي.

وقد تعرّضت آيات أخرى للموضوع، كما في قوله -تعالى-:

1. ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾[2].
2. ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3].
3. ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾[4].

(1) سورة التوبة، الآية 30.
(2) سورة الأنبياء، الآيتان 26 - 27.
(3) سورة الأنعام، الآية 100.
(4) سورة الصافات، الآيتان 151 - 152.

4. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[1].

5. ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾[2].

6. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

7. ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

8. ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ﴾[5].

9. ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾[6].

10. ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[7].

11. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[8].

12. ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[9].

13. ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[10].

---

(1) سورة التوحيد، الآية 3.
(2) سورة النساء، الآية 171.
(3) سورة الأنعام، الآية 101.
(4) سورة مريم، الآية 35.
(5) سورة المؤمنون، الآية 91.
(6) سورة الزخرف، الآيتان 81 - 82.
(7) سورة الكهف، الآيتان 4-5.
(8) سورة الفرقان، الآية 2.
(9) سورة الجن، الآية 3.
(10) سورة الزمر، الآية 4.

ففي أغلب هذه الآيات ورد التعبير بـ(اتّخذ)، وهو يؤيّد ما ذكرنا من كونه أعمّ من الولادة، ولكنّهم نسبوا إليه -تعالى- الولادة في قوله -تعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾[1].

كما أنّ الآيات السادسة والثامنة والرابعة عشرة تنفي الولادة، وتنفي الصاحبة؛ وهما يتناسبان مع دعوى الولادة، وليس مجرّد التبنّي، والآية الأخيرة تصبّ في هذا الاتّجاه أيضاً.

وقد يُقال إنّ الولد لفظاً يفترض الولادة، بخلاف الابن، إلّا بقرينة، وذلك مثل الأب والوالد، فالأب أعمّ من الأب الوالد وغير الوالد، بخلاف الثاني، فإنّه مختصّ بمن تولّد منه إلّا مع القرينة أيضاً، ولكنّ القرآن استعمل الولد في التبنّي، كما في قصّة يوسف عليه السلام: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾[2]، وفي قصّة موسى عليه السلام: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾[3]، وفي هذين الموردين أُطلق اسم الولد، والمراد منه التبنّي قطعاً، دون الولادة؛ ما يعني إمكانيّة إطلاقه على غير المولود، كما أنّ اتّخاذ الصاحبة ليس نصّاً في الولادة، بل يجتمع مع التبنّي، فيكون المراد -هنا- الإشارة إلى ما يفعله البشر.

(1) سورة الصافات، الآيتان 151 - 152.
(2) سورة يوسف، الآية 21.
(3) سورة القصص، الآية 9.

ولا شكّ في أنّ الدليل على نفي الولد يختلف بين حالتي الولادة والتبنّي، وإنْ كان النفي في الحالتين قائماً وتامّاً.

لكنّ الكلام في زعم أهل الكتاب وأنّه على أيّ نحو، فيظهر من الآيتين الخامسة والسادسة أنّهم نسبوا إليه الولادة، فضلاً عن التبنّي.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾:

جواب لقولهم، ونفي لزعمهم.

سبحانه: اسم فعل، معناه التنزيه، وقيل: هو مصدر بمعنى التسبيح. وسبحان الله: تنزيه لله كلّيّاً عمّا لا ينبغي أن يُوصف به، ونصبه في موضع فعل على معنى: تسبيحاً لله، تريد: سبّحت تسبيحاً لله؛ أي نزهته تنزيهاً. ولعلّ المراد نصبه على تقدير فعل، فيكون مفعولاً مطلقاً، وهو مراد من عبّر بأنّه مصدر؛ فالمعنى أنّه -تعالى- منزّه عن اتّخاذ الولد كما يزعمون.

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

في هذه العبارة إضراب عن الماضي المزعوم، وإثبات ملكيّته لما في السماوات والأرض كلّه، وملكوته.

فهو المالك الحقيقيّ؛ لأنّه الخالق. والمالك الحقيقيّ لا يخرج عن سلطانه شيء، وإذا كان له ملكوت كلّ شيء، فما ادّعوه من ولد داخل في الملك، مثل: الملائكة، وعيسى، وعُزير.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾:

القنوت: العبادة والخضوع والتذلّل، فهم خاضعون لإرادته، منقادون لقدرته، محتاجون إليه، وهذه نتيجة طبيعيّة وحتميّة للخلق والإبداع.

فكلّ ملك في مقابل ملكه -تعالى- باطل، وما يطلق عليه اسم الملك في اعتباراتنا، فهو مجرّد ملك اعتباريّ تبانى الناس عليه.

الآية (117)

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾:

الإبداع هو الخلق على غير مثال سابق، وبديع، بمعنى مبدع، مثل: أليم بمعنى مؤلم، وفيه مبالغة في الإبداع.

روي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام: «**إنّ الله -عزّ وجلّ- ابتدع الأشياء كلّها بعلمه على غير مثال كان قبله، فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهنّ سماوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله: وكان عرشه على الماء؟**»[1].

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾:

ما رواه صفوان بن يحيى، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق، قال: فقال: «**الإرادة من**

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص256.

المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله -عزّ وجلّ-، فإرادته إحداثه لا غير ذلك؛ لأنّه لا يروّي، ولا يهمّ، ولا يتفكّر، وهذه الصفات منفيّة عنه، وهي من صفات الخلق، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك، يقول له كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة ولا تفكّر، ولا كيف لذلك كما أنّه بلا كيف»[1].

ثمّ إنّ القضاء الوارد في هذه الآية هو بمعنى الإرادة، وكذلك في غيرها من الآيات[2]. وقد استعمل لفظ الإرادة في آيات أخرى، كما في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

وإرادته -تعالى- تكوينيّة، وهي لا تختلف ولا تتأخّر، فإذا أراد شيئاً كان كما أراد. والزمان داخل في الإرادة، فإذا أراد شيئاً في زمان معيّن، وفي مراحل معيّنة، كان كما أراد، ولو أراده حالاً، كان كما أراد.

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، التوحيد، تصحيح وتعليق: السيّد هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، لا.ت، لا.ط، ص147.
(2) انظر: سورة آل عمران، الآية 47؛ وسورة مريم، الآية 35؛ وسورة غافر، الآية 68.
(3) سورة النحل، الآية 40.
(4) سورة يس، الآية 82.

الآية (118)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾:

تقدَّم في الآيات السابقة الحديث عن تراشق اليهود والنصارى، حيث إنّ كلًّا منهم ينفي أن يكون الآخر على شيء، ثمّ عطف على ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾. وفي هذه الآية كرّر الحديث عن الذين لا يعلمون، وفي القرآن استعمالان لهذا المصطلح؛ أي نفي العلم:

1. في موارد خاصّة تشير إلى جماعة، أو نفي علم بشيء متقدّم، كما في قوله -تعالى-: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1]، فهو نفي متعلّق بما تقدّم من الحقيقة.
2. وصف مطلق يفيد الشمول، كما في الآيتين المتقدّمتين (113 و118) من هذه السورة، وكما في قوله -تعالى-:
   - ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].
   - ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

(1) سورة المنافقون، الآية 8.
(2) سورة الجاثية، الآية 18.
(3) سورة يونس، الآية 89.

- ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].
- ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].
- ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[3].
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[4].
- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، حيث وردت 9 مرّات في القرآن.
- ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، حيث وردت 5 مرّات في القرآن.
- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، حيث وردت 11 مرّة في القرآن.

وهذا النوع من نفي العلم أقرب إلى نفي أساس العلم والمعرفة، بحيث لا يعود على غيره بثمرة وفائدة، وينزّل ما عداه بمنزلة العدم.

فمن لم يؤدِّ به العلم إلى طاعة الله، والتفكّر في آياته وحججه، والاهتداء إلى سبيله، فلا قيمة لعلمه، بل إنّ علمه هو وَهْم، حتّى لو كان متعلّقاً بحقائق محسوسة؛ لأنّ العبرة في إكمال السلسلة العلميّة، بحيث يقوده ما يراه، وما يلمسه، وما يسمعه، وما يتحسّسه إلى معرفة مبدئه وسرّ وجوده ومآله ومرجعه، وإلّا كان كالآلة التي تنعكس فيها صورة الشيء دون أن تدرك شيئاً من ذلك.

(1) سورة الروم، الآية 59.
(2) سورة التوبة، الآية 93.
(3) سورة الزمر، الآية 9.
(4) سورة التوبة، الآية 6.

وهذا المقدار من الحسّ تشترك فيه مع الإنسان الحيوانات والبهائم كلّها، ولكنّه يمتاز عنها بأنّه يستطيع أن يرى في الأشياء ما وراءها، فإذا رأى العالم شيئاً رأى الله قبله وبعده ومعه، وقاده ذلك الشيء إلى أصله ومُوجده.

وينطبق قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على المشركين من غير أهل الكتاب، بمعونة المقابلة مع اليهود والنصارى في الآية السابقة (113)، وفي سورة المنافقون، حيث وصفهم بهذا الوصف.

وتمنّى الذين لا يعلمون أمرين:

1 - ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾.
2 - ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾.

حيث جعلوا ذلك عذراً لكفرهم وجحودهم. لكن لماذا طلبوا ذلك؟

يحتمل أن يكون ذلك مقدّمة لإنكار الألوهيّة، بأن يزعموا أنّه لو كان موجوداً فليكلّمنا، أو تأتينا منه آية، على نسق قول اليهود: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾[1]؛ ويحتمل أن يكون إنكاراً منهم للنبوّة بزعم إرادة نزول الوحي عليهم؛ أي إذا كان الله قد كلّم رسوله، فلماذا لا يكلّمنا نحن؟ وفيه دعوى عدم الفرق بينهم وبين النبيّ، وعدم الأولويّة. والثاني أقرب، ومنه قولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾[2].

(1) سورة النساء، الآية 153.
(2) سورة الإسراء، الآية 90.

هل من استحالة في أن يكلّمهم الله وقد كلّم الرسل عليهم السلام ؟

ليس ثمّة استحالة في تكليم الله -تعالى- لأحد من خلقه، ولكنّ الخلق لا يتحمّلون ذلك، أو لا يدركون أنّه تكليم منه، فلو كلّمهم بإصدار صوت من مكان، فمن الذي يضمن أنّهم سيعترفون أنّه -تعالى- يكلّمهم؟ ولو كان الأمر بتجلّي قدرته، لصُعقوا، كما صُعق قوم موسى ودُكّ الجبل.

وإذا كان التكلّم المباشر لإثبات نبوّة النبيّ، ففي الآيات والدلائل ما يكفي لمن يعتبر ويتدبّر، وإذا كان للاستغناء عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ تلقّي الوحي يحتاج إلى استعداد وتهيّؤ غير متوافر فيهم، ولا في غيرهم من البشر، إلّا من صُنع على عين الله، وسَمَت نفسه، وصَفَت بصيرته.

وبالجملة: فإنّ اختيار الطريقة في التبليغ، وإقامة الحجّة شأن يتعلّق بالمرسِل، وليس للمرسَل إليه أن يعترض على الطريقة، فهو عبد مملوك ضعيف ليس له من الأمر شيء.

وما تعرّضت له الآية هو حال أغلب المعاندين، قال -تعالى-: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾[1].

أمّا المطالبة بالآية: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۚ﴾:

فلا بدّ من أنّهم قصدوا بالآية المعجزة، كما في معاجز موسى عليه السلام وآياته، كما حدّثنا القرآن الكريم عنها، وذلك في قوله

(1) سورة المدثر، الآية 52.

-تعالى-: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[1]، ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾[2].

فهم يطالبون بآية غير الآيات القائمة، مع أنّ هذه الآيات تكفي للاحتجاج والاعتبار والاهتداء، لمن كان يطلب الحقيقة، ويسعى وراء الدليل منصفاً مستعلِماً.

وقد أجابهم الباري -عزّ وجلّ- بإجابتين، هما:

- ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، فدلالة الكتاب وإعجازه يؤدّيان الغرض.
- ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾، فما الذي يمنع أن يكذّب بها هؤلاء أيضاً، إذا ما جاءت؟ وعندئذ يستحقّون تعجيل العذاب والهلاك.

وبالجملة: إنْ كان الأمر يتعلّق بالبيّنات والدلائل، ففيما جاءكم كفاية، وإنْ كان مجرّد عناد وتعنّت، فلا مانع من تَكرار العناد بعد تَكرار نزول الآية.

وطريقة المعاندين والجاحدين واحدة، وإنْ اختلف الزمان، واختلفت بعض الشكليّات: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، فقال الذين من قبلهم: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ

(1) سورة العنكبوت، الآيتان 50 - 51.
(2) سورة الأنبياء، الآية 5.

أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾[1]، ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾[2].

لقد قامت الحجّة بآيات القرآن الكريم: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[3]، لكنّ المشكلة في أنفسهم وفي تقبّلهم لها، والنظر فيها والاعتبار، فالآيات هي آيات لمن أراد الوصول إلى العلم واليقين، وليس لمن أراد العناد والكفر والمكابرة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإذعان للحقّ والتخلّي عن العناد يدخلان في المسائل الأخلاقيّة التربويّة؛ لأنّ الحقّ -أحياناً- يكون أمراً مخالفاً لرغبات النفس وأهوائها، فتنفر منه، وإنْ دلّ عليه دليل العقل والبرهان. وهذا يفسّر لنا خلفيّة رفض الناس لدعوة الرسل والأنبياء عليهم السلام، على الرغم من وضوح الحقّ لديهم، ومن أنّهم جاؤوا للبشر بما فيه خيرهم، فمن الضروريّ جدّاً أن تروَّض الأنفس على قبول الحقّ مهما كان، وفي أيّ ظرف. وفي وصايا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيت العصمة روايات مستفيضة في هذا الشأن، منها: «**قل الحقّ، ولو على نفسك**»[4]، «**أنصفُ الناس، من أنصف من نفسه من غير حاكم عليه**»[5].

(1) سورة النساء، الآية 153.
(2) سورة الإسراء، الآية 90.
(3) سورة البقرة، الآية 118.
(4) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص130.
(5) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص114.

وعليه، فإنّ قبول الحقّ قضيّة تتجاوز العقل والإدراك إلى الرضى القلبيّ الذي يخضع للتربيّة والتخلّق، وهو جهاد طويل وصعب، لكنّه إذا أدرك غايته سَهل على نفسه أن ترضى بما يمليه عليه عقله.

الآية (119)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

هذه الآية متمّمة للآية السابقة التي تناولت وصف حال المشركين في تعليل رفضهم للإيمان، فجاءت لتؤكّد حقيقة ثابتة، وإنْ شكَّك فيها الجاحدون، وتباطأ عن قبولها الكافرون.

والخطاب في الآية للرسول ﷺ، وفيه تأكيد بـ(إنّ)، مع أنّ الرسول ﷺ ليس لديه أيّ شكّ في الأمر، فالمقصود -إذاً- التأكيد في قبال أولئك الذين وصفهم بأنّهم لا يعلمون.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الحقّ في اللغة هو نقيض الباطل. والحقّ كلمة تختصر ما جاء به الرسول ﷺ كلّه، فهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا ينطق عن الهوى، بل ما جاء به كلّه حقّ خالص دون شائبة باطل أو ريب، فالباء متعلّقة بـ(أرسلناك).

﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾:

من الواضح أنّ مهمّة النبيّ ﷺ والأنبياء عليهم السلام كلّهم هي التبشير

والإنذار، وبينهما تلازم: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]، وهما علّة بعثة الأنبياء عليهم السلام، حيث قال -تعالى- في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2].

وقد تكرّر في عدد من الآيات وصف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تارة بالبشير النذير، وأخرى بالمبشّر والمنذر[3]، وكلاهما يؤدّيان الهدف نفسه، مع فارق في مدلول اسم الفاعل والصفة المشبّهة.

وذِكْر هذين الوصفين في هذه الآية تبيان لمهمّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك في سياق نفي الدور الإلزاميّ والإكراهيّ، وبالتالي لا يُقاس مدى نجاح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في مهمّته باستجابة الناس له؛ لأنّ الاستجابة أمر خارج عن إرادته، ومتعلّق بعوامل عدّة قائمة في الناس أنفسهم.

وتكون البشارة بالخير والشرّ -على ما قيل-، ولكن يغلب استعمالها في الخير، وأصل اشتقاقها من البِشر، وهو ما يظهر على الوجه من الفرح، ويعبّر عنه بطلاقة الوجه، والاستبشار توقّع البشارة بالخير.

(1) سورة الأحقاف، الآية 12.
(2) سورة المائدة، الآية 19.
(3) انظر: سورة الأعراف، الآية 188؛ وسورة هود، الآية 2؛ وسورة سبأ، الآية 28؛ وسورة فاطر، الآية 24؛ وسورة فصلت، الآية 4؛ وسورة الإسراء، الآية 105؛ وسورة الفرقان، الآية 56؛ وسورة الأحزاب، الآية 45؛ وسورة الفتح، الآية 8.

وأمّا الإنذار، فهو تبليغ فيه تخويف أو تحذير. والمقابلة بين الأمرين تقتضي أن يكون ذلك في تبليغ الأوامر والنواهي الإلهيّة، وما يترتّب على ذلك من بشارة، إذا آمن الإنسان والتزم وأدّى ما عليه، وترك ما نهي عنه، وما يترتّب على ذلك من عقاب إذا جحد أو ترك الالتزام بالأوامر والنواهي.

وكثُر استعمال التبشير في نشر الدين عند أهل الكتاب، وهو لا يغيّر من الأصل المتقدّم شيئاً.

والثواب والعقاب الملازمان للبشارة والإنذار وسيلتان تربويّتان، وهما من متمّمات العدالة، فلا يكفي أن تفرض العقوبة على المخالفة والإخلال بالتكليف، وإنّما ينبغي أن تقابلها مثوبة للالتزام والعمل، والمقابلة بين التشجيع والتقريع، والتنويه والتنبيه؛ كذلك بين الثواب والعقاب، وبين النعيم والجحيم.

وقد جُبِلَ الإنسان على حبّ الخير لنفسه، وكراهة التعرّض للأذى؛ فترتّب عليه التبشير والإنذار.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾:

إذا أنذرتهم وحذّرتهم وبيّنت لهم، فقد أدّيت ما عليك، فإذا لازموا طريق الضلالة وأدّى بهم إلى الجحيم، فلست أنت المسؤول عن ضلالتهم، ولا عن هلاكهم.

وربّما كان المراد المبالغة في بيان سوء المصير، حيث إنّه ممّا لا يُسأل عنه لشدّته وتنوّعه.

والجحيم: النار الشديدة التأجّج والالتهاب والتوقّد.

الآية (120)

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾:

بعد أن بيّن الله حال المشركين، عاد ثانية للحديث عن أهل الكتاب؛ وما سبق الحديث عن عصبيّتهم عند تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ هذه العصبيّة التي لم تكن تقتصر على رفض اليهود للنصارى، ورفض النصارى لليهود، وإنّما هي صفة إذا ابتلي بها الإنسان دفعته إلى رفض كلّ شيء لا ينسجم مع عصبيّته، ولو كان حقّاً، وهو ما تتحدّث عنه هذه الآية، فنتيجة رفضهم للإسلام أنّهم لن يرضوا عن الرسول الذي جاء به، حتّى يتخلّى عنه ويتّبع ملّتهم التي هم عليها، ولن يتحقّق رضاهم جميعاً، فإنّ اتّباع ملّة فريق منهم يسخط الآخر، وعدم اتّباع ملّة أحد منهم يسخطهم جميعاً.

والملّة هي الديانة والنحلة، والطريقة المتّبعة، التي إذا سُلكت صارت معلماً يميّز أهلها.

﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾:

فيه حصر الهدى بهدى الله، فليس في اتّباع ملّة أحد منهم الهدى، وإنّما هو باتّباع هدى الله المتمثّل بالوحي النازل على محمّد ﷺ. ومن جاءه من الله هدى استغنى به عن غيره، بل صار

غيره ضلالة إنْ غايره وخالفه؛ ولذا وصف ما يدعون إليه أنّه أهواء.

ومع أنّ رسول الله ﷺ لا يمكن أن يحيد عن هدى الله، ولو أمكن ذلك لما كان للرسالة أهلاً ومحلًّا، ولكنّ فرض المحال ليس بمحال، خاصّة أنّ عصمة الرسول ﷺ تبقى إراديّة اختياريّة، على الرغم من التوفيق والعناية والتسديد الإلهيّ، فمع أنّ الرسول ﷺ كذلك، لكنّ القرآن يخاطب الرسول ﷺ من أجل إرشاد المسلمين وليسمع غيره ويعتبر، وذلك من باب (إيّاك أعني واسمعي يا جارة)[1]، يقول: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ يا محمّد ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها ويريدونك أن تتّبعها، ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي ما أوحى به الله إليك وبيّنه في محكم آياته، فلن يمنعك شيء، ولن يحميك أحد، ولن ينصرك من دون الله من ناصر عند أخذك أخذ عزيز مقتدر!

(1) وهو أسلوب كلاميّ جرى عليه الكلام العربيّ في مقام التأثير الأبلغ والأعمق في نفس السامعين، وقد جرى عليه القرآن الكريم في بعض خطاباته، وإليه أشارت الروايات المأثورة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام؛ منها: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة»، راجع: الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص631.
وفي حديث طويل عن الإمام الرضا عليه السلام أجاب فيه عن مجموعة من المسائل التي سأله إيّاها المأمون العبّاسي، حيث قال له المأمون: لله درّك أبا الحسن، فأخبرني عن قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (سورة التوبة، الآية 43)؟ قال الرضا عليه السلام: «هذا ممّا نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة؛ خاطب الله -عزّ وجلّ- بذلك نبيّه، وأراد به أمّته. وكذلك قوله -تعالى-: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (سورة الزمر، الآية 65)، وقوله -عزّ وجلّ-: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 74). قال: صدقت يابن رسول الله ﷺ».
راجع: الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح: الشيخ حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1404هـ - 1984م، لا.ط، ج1، ص180.

الآية (121)

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

في الآية جواب عن سؤال مقدّر؛ مفاده: بعد إعراض اليهود والنصارى، مَنْ الذي سيؤمن بالرسول ﷺ؟ فجاءت الآية للإخبار عن أنّ الذين آتيناهم الكتاب، وهم يتلونه حقّ تلاوته، أولئك هم المؤمنون به، ولن يضرّه كفر من كفر، فمن يكفر فأولئك هم الخاسرون، وليس الرسول هو الخاسر بإعراضهم وكفرهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

ذُكِرَ في المراد بمَنْ أُوتي الكتاب وجهان؛ هما:

1. أنْ يكون المراد اليهود والنصارى الذين جاءتهم كتب الله؛ ومن هؤلاء مَنْ يتلو الكتاب النازل عليه بواسطة النبيّ المرسَل موسى أو عيسى عليهما السلام، يتلوه حقّ تلاوته، فيقوده ذلك إلى الإيمان؛ وأمّا الذي يتلو الكتاب دون أن يتّبع ما فيه، ودون أن يدرك عمق ما فيه، فهو الذي يضعه وراء ظهره، وبالتالي يكفر بمحمّد ﷺ؛ لأنّ التوراة النازلة على موسى عليه السلام، والإنجيل النازل على عيسى عليه السلام يأمران بالإيمان بمحمّد ﷺ.
2. أن يكون المراد أصحاب محمّد ﷺ الذين نزل عليهم القرآن، وهم يتلونه حقّ تلاوته، أو من أهل الكتاب من قرأ القرآن قراءة وعي وتأمّل، وعرف أنّه من عند الله، فهم يؤمنون بمحمّد ﷺ.

وعليه، يكون الفرق بين الوجهين في المقصود من الكتاب على الوجه الأوّل هو مطلق الكتاب، فيشمل التوراة والإنجيل، وعلى الوجه الثاني هو خصوص القرآن.

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾:

ذُكِرَ في حقّ تلاوته وجهان؛ هما:

1. يقرأونه حقّ قراءته؛ أي كما يجب أن يُقرأ؛ قراءة التدبّر والتأمّل والخشوع.
2. يتّبعونه على الوجه الذي ينبغي له، فعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[1]، قال: يرتّلون آياته، ويتفهّمون معانيه، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخشون عذابه، ويتمثّلون قصصه، ويعتبرون أمثاله، ويأتون أوامره، ويجتنبون نواهيه. ما هو -والله- بحفظ آياته، وسرد حروفه، وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنّما هو تدبّر آياته، يقول الله -تعالى-: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[2]"[3].

وعنه عليه السلام -أيضاً- في تفسير هذه الآية، قال: «**هم الأئمّة**»[4].

وهو من باب التفسير بالمصداق الأبرز والأتمّ.

(1) سورة البقرة، الآية 121.
(2) سورة ص، الآية 29.
(3) المالكي الأشتري، ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام)، إيران - طهران، دار الكتب الإسلامية، 1368ش، ط2، ج2، ص555.
(4) العياشي، تفسير العياشي، مصدر سابق، ج1، ص57.

وعنه عليه السلام -أيضاً- في تفسير قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، قال عليه السلام: «**الوقوف عند ذِكْر الجنّة والنار**»[1].

وقد وردت في القرآن الكريم والروايات المأثورة مجموعة من الآداب لتلاوة القرآن؛ منها:

1. التطهّر استعداداً للدخول إلى رحاب القرآن؛ فعن الإمام عليّ عليه السلام: «**لا يقرأ العبد القرآن إذا كان على غير طهور؛ حتّى يتطهّر**»[2].
2. حضور القلب وتجريد النفس عن الشواغل.
3. الاستعاذة والتخلّص من نفوذ الشيطان: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[3].
4. الإنصات والاستماع: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].
5. الاستعانة بعد الاستعاذة؛ أي الدعاء والطلب.
6. التدبّر والترديد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[5]، «**لا خير في قراءة لا تدبّر فيها**»[6].
7. التفاعل والتجاوب.
8. الاستشعار بنداءات القرآن.
9. تحسين الصوت.

وغيرها من الآداب.

---

(1) العيّاشيّ، تفسير العيّاشيّ، مصدر سابق، ج1، ص57.
(2) الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ص627.
(3) سورة النحل، الآية 98.
(4) سورة الأعراف، الآية 204.
(5) سورة محمد، الآية 24.
(6) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص36.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

تحصر الآية الخسران بالكفر بالكتاب؛ وذلك لأنّه خسارة ليس بعدها خسارة، فماذا ينفع الكافر، إذا خسر الآخرة ونعيمها، وابتلي بالعذاب وأليمه؟ وأيّ قيمة لما يمكن أن يحصل عليه في الدنيا من لذّة تزول؛ وإنْ عظمت، فلذائذ الدنيا تجبل بالمعاناة وإنْ بلغت ما بلغت؟! فميزان الربح والخسارة في الحقيقة لا يقتصر على شؤون الدنيا، بل يدخل فيه ما يحصل عليه المؤمن، وما يترتّب على كفر الكافر، فيظهر أنّ خسارة الكافر ليس بعدها خسارة!

الآية (122)

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

تقدّم تفسير هذه الآية والآية اللاحقة لها عند تفسير الآيتين (47 و48) من السورة نفسها.

الآية (123)

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾:

ختم القرآن الكريم بهذه الآية والآية السابقة هذا المقطع من الآيات التي تتحدّث عن بني إسرائيل لتبدأ طائفة من الآيات ذات موضوع جديد.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الكلينيّ، الشيخ محمّد بن يعقوب بن إسحاق، الكافي، تحقيق وتصحيح: عليّ أكبر الغفاريّ، دار الكتب الإسلاميّة، إيران - طهران، 1363هـ.ش، ط5.
3. عليّ بن إبراهيم القمّيّ، تفسير القمّيّ، تصحيح وتعليق وتقديم: السيّد طيّب الموسويّ الجزائريّ، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، 1404هـ.ق، ط3.
4. العياشيّ، محمّد بن مسعود، تفسير العياشيّ، تحقيق الحاج السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، إيران - طهران، 1422هـ.ق، ط1.
5. المجلسيّ، العلّامة محمّد باقر بن محمّد تقيّ، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسّسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ.ق/1983م، ط2.
6. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، علل الشرائع، تقديم: محمّد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف، 1385هـ.ق/1966م، لا.ط.

7. الطوسيّ، الشيخ محمّد بن الحسن، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة في مؤسّسة البعثة، دار الثقافة، قمّ المقدّسة، 1414هـ.ق، ط1.
8. الطبرسيّ، الشيخ الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضيّ، قمّ المقدّسة، 1392هـ.ق/1972م، لا.ط.
9. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، الخصال، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، 1403هـ.ق/1362هـ.ش، لا.ط.
10. الخليل الفراهيديّ، أبو عبد الرحمن بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهديّ المخزوميّ والدكتور إبراهيم السامرائيّ، مؤسسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ.ق، ط2.
11. الطوسيّ، الشيخ محمّد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العامليّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، طهران،1409هـ.ق، ط1.
12. الطباطبائيّ، العلّامة السيد محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، 1417هـ.ق، ط5.
13. ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب حوزه، قمّ المقدّسة، 1405هـ.ق/1363هـ.ش، لا.ط.
14. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة - مؤسّسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ.ق، ط1.

15. النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1411 - 1991م، ط1.
16. الخزاز القمّيّ، عليّ بن محمّد، كفاية الأثر، تحقيق: السيّد عبد اللطيف الحسينيّ الكوهكمريّ الخوئيّ، انتشارات بيدار، إيران - قم، 1401هـ.ق، لا.ط.
17. ابن شعبة الحرّانيّ، الحسن بن عليّ، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرفة، إيران - قم، 1404هـ.ق/1363هـ.ش، ط2.
18. الطبرسيّ، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصّائيّين، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق/1995م، ط1.
19. الطبرسيّ، الشيخ الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، 1417هـ.ق، ط1.
20. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهديّ عليه السلام، قمّ المقدّسة، 1409هـ.ق، ط1.
21. مسلم النيسابوريّ، مسلم بن الحجّاج، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.
22. الليثيّ الواسطيّ، عليّ بن محمّد، عيون الحكم والمواعظ،

تحقيق: الشيخ حسين الحسينيّ البيرجنديّ، دار الحديث، إيران - قم، 1418هـ، ط1.
23. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، نشر مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ، إيران - قم، 1404هـ، ودار إحياء الكتب العربيّة - عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، 1378هـ.ق/1959م، ط1.
24. الجعفيّ، المفضّل بن عمر، التوحيد، تعليق: كاظم المظفّر، مؤسّسة الوفاء، بيروت، 1404هـ.ق/1984م، ط2.
25. ابن أبي جمهور الأحسائيّ، محمّد بن عليّ، عوالي اللئالي، تقديم: السيّد شهاب الدين النجفيّ المرعشيّ، تحقيق: الحاج آقا مجتبى العراقيّ، لا.ن، لا.م، 1403هـ.ق/1983م، ط1.
26. البيهقيّ، عليّ بن زيد البيهقيّ، معارج نهج البلاغة، تحقيق: محمّد تقيّ دانش پژوه، قمّ المقدّسة، مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، 1409هـ.ق، ط1.
27. الحويزيّ، عبد عليّ بن جمعة، نور الثقلين، تصحيح وتعليق: هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، مؤسّسة إسماعيليان، قمّ المقدّسة، 1412هـ.ق/1370هـ.ش، ط4.
28. الرضيّ، السيّد أبو الحسن محمّد الرضيّ بن الحسن الموسويّ، نهج البلاغة (خطب الإمام عليّ عليه السلام)، تحقيق وتصحيح: صبحي الصالح، لا.ن، لبنان - بيروت، 1387هـ.ق/1967م، ط1.
29. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، التوحيد، تصحيح وتعليق: السيّد هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ

التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، لا.ت، لا.ط.

30. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح: الشيخ حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1404هـ.ق/1984م، لا.ط.

31. المالكي الأشتري، ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام)، إيران - طهران، دار الكتب الإسلامية، 1368ش، ط2.